

مجلة اللغة العربية وآدابها

السنة ١١، العدد ٢، صيف ١٤٣٦ هـ

صفحة ٣٢٩ - ٣٦٥

## المعجم الشعري عند يحيى السماوي

### ديوان "نقوش على جذع نخلة" نموذجاً

يحيى معروف<sup>١</sup>، بهنام باقري<sup>٢</sup>

١. أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الرازي، کرمانشاه

٢. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الرازي، کرمانشاه

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٦/١٥؛ تاريخ القبول: ٢٠١٥/٧/٢٨)

### الملخص

لاشك أن المعجم الشعري لدى كل شاعر يتكوّن من المفردات التي تختزن في فكره، و هي محملة بدلالات نفسية خاصة. ولكل شاعر معجم خاص به يمتاز شعره عن الشعراء الآخرين ويحكم له أو عليه. وبهذا المعجم يمكن تحديد هوية الشاعر وبيان علاقته بما حوله؛ وذلك لنوعية الألفاظ والكلمات المختارة وكيفية توزيعها في القصيدة والموضع الذي تدور حوله الفكرة. من الشعراء الذين عاشوا محنة العراق في القرن الحاضر وشهدوا متغيراتها ومن ثم صاغوا بعض جوانبها شعراً، هو الشاعر يحيى السماوي الذي جاء شعره نابضاً بهذه الأحداث، فنقل مأسيتها وصور ضياع الشعب العراقي في زمن النظام الديكتاتوري الصدامي، والاحتلال الأمريكي وديمقراطيته المزعومة وجرائمه الشنيعة في العراق. اعتمدنا في دارستنا هذه، على المنهج الوصفي التحليلي، للتوصل إلى نتائج واضحة ومفيدة تبرز قيمة هذه الدراسة. وتتكون الدراسة من مقدمة أبرزنا مفهوم المعجم الشعري والحقل الدلالي، ثم البحث عن حياة الشاعر ونشاطاته السياسية والثقافية، ثم تناولنا بالتحليل أهم الحقول الدلالية التي دارت حولها المعجم الشعري له. وستتناول الدراسة، هذه الحقول وفق الإطار الدلالي لكل حقل، وتبتعد الدراسة عن المفردات من حيث منظورها اللغوي وصرفها واشتقاقها. مؤكداً الدراسة أن هذه الحقول؛ هي أهم الحقول الدلالية التي دارت حولها البنيان الشعري لدى الشاعر مع وجود حقول أخرى يمكن أن يجدها المتلقي إلا أنها لم تكن بكثرة هذه الحقول؛ مما يدل على مدى اهتمام الخطاب الشعري السماوي لهذه الحقول، وللمعاني الدلالية التي عبر عنها. ومن أهم معطيات هذا البحث هو أن حقل الأرض والوطن هو القضية الجوهرية التي شكلت البؤرة الدلالية للخطاب الشعري لدى الشاعر بحيث خصص شعره لتصوير العلاقة القائمة بينه وبين الوطن الجريح، وجاء شعره مليئاً بألفاظ الحزن والجراح والألم، هذه المفردات كاشفة عن عمق الجرح والألم الذي يعاني منه الشاعر إزاء ما تمر بالعراق في ظل الاحتلال الأمريكي وديمقراطيته المزعومة وجرائمه البشعة فيها. وهكذا كل الحقل تتصدره ألفاظ معينة من حيث الكثرة والتعميم، يمكن أن نطلق عليها الألفاظ المفتاحية. لقد استخدم شاعرنا كل هذه الألفاظ الإيحائية لتقريب الحدث وتصويره من أوضاع نقطة وأقربها إلى القارئ.

### الكلمات الرئيسية

يحيى السماوي، نقوش على جذع نخلة، المعجم الشعري، الحقول الدلالية.

## مقدمة

تعد دراسة المعجم الشعري عاملاً مهماً في تحليل بنية لغة النص الشعري، وتكشف أيضاً، العلاقة القائمة بين تجربة الشاعر ومعالم الصورة التي أضحت جزءاً من إحساسه. ولكل شاعر معجمه الشعري ومن خلال هذا المعجم يمكن تحديد هوية الشاعر وبيان علاقته بما حوله مما يحتويه هذا الكون الواسع. وذلك لأن كل لفظة في النص الشعري تشكل بنية أساسية في النسيج العام الذي يُشكل النص، ويكون لها دلالة خاصة وفقاً للتركيب الذي يبدع الشاعر. وعلى أساس ذلك فإن مفتاح الولوج إلى تحديد البنيات الدلالية الأساسية للغة الشعرية يتمثل في التعامل مع المعجم الشعري ومحاولة تحديد طبيعته ومكوناته. وعند تتبع المعجم الشعري في ديوان "نقوش على جذع نخلة" للشاعر يحيى السماوي، يمكن الكشف عن المخزون اللغوي الذي يتمكن الشاعر من توظيفه داخل قصائده، ففي ديوانه نجد بنى لفظية متعددة تشير إلى محاور دلالية متنوعة، حيث تتردد في الديوان ألفاظ متنوعة حول الأرض والوطن، وغيرها من الألفاظ التي تحيل إلى محاور دلالية، وتتشكل من كلمات مفاتيح وهي المواد المعجمية التي تتكرر في الديوان بشكل ملحوظ، يفوق ما تكون عليه في الوضع الطبيعي المعتاد. بحيث يشير تكرارها إلى أنها ذات أهمية خاصة بالنسبة إليه، وتعبّر أو توحي عن الحالة النفسية للشاعر بحسب القوة والهيمنة والحضور. وذلك هو الذي يقودنا إلى تحليل بنية الخطاب الشعري لشاعرنا في الديوان، باعتبارها حقول دلالية تحدد القدرة الجمالية والدلالية للنص الشعري، وهذه الحقول، تشكل أدوات فاعلة للقارئ تمكنه من فهم النص بدقة متناهية، إضافة إلى دورها البارز في الخوض إلى نفس الشاعر للكشف عن مكوناته وآلامه إزاء ما تمر بالعراق الجريح من الظلم والدمار والمآسي.

والسماوي شاعر كبير في بناء صورته الشعرية، وتحفل إنجازاته بقيم الإنسانية النبيلة، ووظف شعره لخدمة الإنسان والمسيرة الإنسانية وخاصة تفاعله الكبير مع قضية وطنه الجريح الذي تعرض للطواغيت - حزب البعث - وللاحتلال الأمريكي، ولأشرس هجمات إرهابية في التاريخ نتيجة هذا الاحتلال وديمقراطيته المزعومة. ولقد تشكلت تجربته الشعرية من خيوط المأساة التي أصابت شعبه من الظلم والعدوان، وهذا التوظيف، قد عبّر عن موقف الشاعر، وما يعانیه من الحزن العميق لبعده عن وطنه الجريح وما يمر به من الآلام والمآسي. كرر الشاعر اللفظ الواحد في قصائد متعددة في الديوان وترديد هذه الألفاظ ذات دلالة واحدة لآبد

من أن يؤشر دلالة معينة، يكون المرشد إلى بنية الخطاب الشعري للشاعر. وانطلاقاً من هذا الفهم البسيط للمعجم، باعتباره استخداماً معيناً لمفردات اللغة، وبعد وقوفنا على المعجم الشعري لشاعرنا، من خلال ديوان "نقوش على جذع نخلة"، يمكننا تحديد الحقول الدلالية التي دارت حولها المعجم الشعري للسماوي في الديوان، وهي: حقل الأرض والوطن، حقل الألم والحزن، وحقل الجهاد والصمود. ففي هذه الحقول الثلاث؛ دارت مفردات معجم شعري للشاعر، فهو يحمل هموم وطنه وشعبه ويجسد صورة جماعية في حزنه؛ وفي ظل هذا التلازم العميق بين الوطن والشاعر شكل معجمه الشعري.

تمثل قصائد السماوي صرخة تأملية في بث حنينه الدائم للعراق الجريح. فقد كرّس الشاعر في هذا الديوان كلّ ما يمكن قوله في وطنه العراق المملوء بالمآسي والجراح. ويرجع اختيارنا هذا الموضوع لسببين؛ الأول مكانته الشعرية في الشعر العراقي الحديث، والثاني الخصوصية الشعرية التي يتميز بها شاعرنا في نقل مآسي الشعب العراقي في ظل الاحتلال الأمريكي وديمقراطيته المزعومة. ويهدف البحث إلى تسليط الضوء على الخطاب الشعري في هذا الديوان بوصفه خطاباً يعبر عن تجربة شعرية صادقة لشاعر عانى من ألم الغربة ومآسي وطنه؛ والوقوف على ملامحها وتدقيق معانيها وانعكاساتها على معجمه الشعري. ولقد لفت نظرنا في ديوان "نقوش على جذع نخلة" موهبة الشاعر الشعرية القوية، ولغته ذات المعجم الشعري الخاص. ومن هنا تكمن أهمية الدراسة وجدوى تسليط الضوء على هذه التجربة الشعرية.

تسعى الدراسة من خلال رصد المفردات في حقولها الدلالية في ديوان "نقوش على جذع نخلة"، أن تصل إلى رؤية الشاعر لعالمه وواقعه، وموقفه من قضايا وطنه الجريح؛ لأن شيوع كلمات عند شاعر ما، يعد من أكثر مميزات الرؤية والأسلوب عند الشاعر. ويحاول البحث الإجابة عن الأسئلة الآتية: ١. ما هو أثر انفعالات الشاعر على معجمه الشعري وما هي ملامح هذا المعجم؟ ٢. كيف تكون لغة الشاعر تبرز قدرته في فن صياغته للألفاظ ذات الإيحاء، ومهارته في انتقاء المعبر منها؟ ٣. كيف جعل الشاعر من الكلمات قوة فاعلة لإيقاظ حس الانتماء للأمة في أبناء عصره، وبعث الهمة والتبصير بالواقع، وتعبير عن رؤيته لما يجري في العراق من الظلم والمآسي؟

وأما بالنسبة لخلفية البحث فإن شعر السماوي قد حظي بدراسات عديدة؛ هناك كتاب «أفاق الشعرية: دراسة في شعر يحيى السماوي» و«موحيات الخطاب الشعري في شعر يحيى السماوي»

الصادر عن دار الينابيع في دمشق للأستاذ "عصام شرتح"، وقام الباحث فيهما بدراسة التقنيات الجمالية المهمة في قصائد السماوي كتقنية التفاعل والتماسك والانسجام وخصوصية التجديد الشعري عنده على مستوى التشكيل التصويري والتشكيل النصي. وكتاب «العشق والإغتراب في شعر يحيى السماوي "قليلك لا كثيرهن نموذجاً"» للدكتور "جاهين بدوي"، الذي تناول تجربة الاغتراب والرمز الشعري والموسيقى في إحدى الدواوين من أعمال شاعر وهي ديوان "قليلك لا كثيرهن". وكتاب «الشعر العراقي في المنفى "السماوي" نموذجاً» للدكتورة فاطمة القرني التي تطرقت إلى دراسة تجليات المرأة في شعر السماوي واقماً وحلماً، كما يتضمن مخطوطاً لسيرة الشاعر الذاتية. وكتاب «تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيى السماوي»، لمجد الغرباوي، ويأتي هذا الكتاب من مؤسسة المتحف العربي، في المجلدين من أجل تخليد الذكرى وما كتب حول انجازاته في هذه المناسبة والمقالات التي كتبت حول تجربته الشعرية. ويشتمل هذا الكتاب على عدة أبواب: دراسات نقدية، مقالات، حوار مفتوح مع الشاعر حول آرائه وتجربته الشعرية وحياته. أما المقالات التي تناولت شعر يحيى السماوي متعددة، ولعل أبرزها بالنسبة لدراستنا هي: «قراءة في قصيدة يحيى السماوي؛ يا صابرا عقدين إلا بضعة» لـ«عبد الجواد خفاجي»، الذي تناول قصيدة واحدة من أعمال الشاعر وسلط الضوء على تجربة الشاعر وموقفه من التغيير الذي أصاب العراق تحت الاحتلال. ومقالة «السماوي يحضر التاريخ على جذع الوطن» لـ "شوقي عبد الحميد يحيى"، و«الوطن منشوداً وموجوداً في شعر يحيى السماوي» لـ "محسن العوني" حيث درساً تجربة الاغتراب عند الشاعر وتوظيف بعض الشخصيات التراثية في شعره، وهذه المقالات طبعت في كتاب "تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيى السماوي". واستفاد الباحث من هذه الكتب والمقالات وذكرناها في المصادر والمراجع. ومقالتي "دلالات الألوان في شعر يحيى السماوي" و"استدعاء شخصية الإمام الحسين عليه السلام في شعر يحيى السماوي" لرسول بلاوي ومرضية آباد، التي درساً فيهما التوظيف الرمزي للألوان وتوظيف شخصية الإمام الحسين عليه السلام في شعر السماوي. وعلى الرغم من تنوع هذه الدراسات إلا أن هذه الدراسة، قُدمت في شكل مختلف عن غيرها من الدراسات في المجال نفسه، وهو أمر مردود إلى طبيعة المادة التي قامت عليها، والمحاور التي تناولتها هذه الدراسة.

إذن؛ الدراسات التي تناولت شعر يحيى السماوي لم تفرد دراسة مستقلة لهذا الموضوع، ولم يتم أحد بدراسة المعجم الشعري عند يحيى السماوي في ديوان نقوش على جذع نخلة،

وإنما تناولت هذه المقالات موضوع الوطن بشكل عام، ولم توجد دراسة مستقلة تناولت هذا الموضوع. وعلى الرغم من كثرة الأبحاث والدراسات في شعره، إلا إنها تؤدي غايات منفصلة ولكل منها منهجه الخاص، ولم تتطرق إلى هذا النوع من البحث الدلالي.

### المعجم الشعري

يشكل المعجم الشعري عنصراً هاماً في بنية الخطاب الشعري، بل هو المستوى الأساس في البناء الفني للنص الشعري، وهذه الأهمية التي يكتسبها المعجم الشعري لا تنفي وجود علاقات تربطه بباقي المستويات التركيبية والدلالية للنص الشعري. تعدّ الدراسة الدلالية للنص الأدبي بكل أشكاله وتفرعاته، واحدة من أهم المباحث الدراسات الأدبية بشكل عام والدراسات الأسلوبية بشكل خاص؛ لأنها تدرس النص الأدبي على كافة جوانبه لتكشف عن دلالاته الكامنة والخفية في نسيج العمل الأدبي فيتجلى بذلك المعنى الحقيقي والجوهرى للنص. ولكل شاعر عالم خاص، به يميز شعره عن شعر الآخرين؛ وذلك لنوعية الألفاظ المختارة وكيفية توزيعها في القصيدة والموضع الذي تدور حوله الفكرة. «الشعر بناء، والكلمات ليست إلا لبنات هذا البناء. والشاعر المجيد بمثابة المهندس البارِع يكون حظه من البراعة بمقدار استغلاله لكل الإمكانيات في تشييد بنائه وتسخير كل ما يراه مناسباً لتأسيسه وتأمين تماسكه. ويقدر ما يبرع الشاعر في تعامله مع الكلمات يكون حظه من الفن والشاعرية ويحكم له أو عليه على هذا الأساس. من هنا تأتي أهمية المعجم الشعري، أو قل العناصر الأساسية التي يشكل منها الشاعر قصائده ومقطوعاته» (حسنين، ١٩٨٣: ٢٩).

لقد اهتمت الدراسات الحديثة بالمعجم اللغوي من حيث التركيب والدلالة، وخصت الدراسات الأسلوبية المعجم الشعري باهتمام خاص؛ لأن «شيوخ ألفاظ معينة في قصائد شاعر ما يَوْمُ إلى أن حالة نفسية تتراكم عليها شبكة لفظية ذات دلالات معنوية ونفسية، تعبر عن تلك الحالة المستشعرة التي تهيم على كيان الشاعر» (راضي جعفر، ١٩٩٨: ١٢٩). فكل شاعر معجمه الشعري ومن خلال هذا المعجم يمكن تحديد هوية الشاعر وبيان علاقته بما حوله مما يحتويه هذا الكون الواسع. وذلك لأن كل لفظة في النص الشعري تشكل بنية أساسية في النسيج العام الذي يُشكل النص، ويكون لها دلالة خاصة وفقاً للتركيب الذي يبده الشاعر. ويرى «الحليبي» في هذا الإطار؛ «لكل شاعر معجم خاص، يصطفيه فكره ووجدانه ونفسيته خلال قراءته وممارساته للأدب، يصبغه بتجاربه الخاصة؛ بحيث يصبح ملكاً له،

يعرف به؛ وتلك سمة أصالة، تحسب له. وهو بذلك يمثل العالم اللغوي الخاص بالشاعر، الذي يكشف عن ثقافته بكل أنواعها» (الحليبي، ٢٠٠٩: ٢٢١).

يكتسب المعجم الشعري أهمية عظمى، وهذا المعجم هو ذخيرة الشاعر وخلاصة تجربته ويمثل المفتاح الشعري لعالمه؛ فالشاعر إذ يكرر ألفاظاً ذات جذر لغوي واحد فإنه يبين من طرف خفي أو جلي عما يدور في خياله، أو يتمركز في شعوره. إذن المعجم الشعري يعني استخدام الشاعر لمجموعة مفردات أو تراكيب يشكل بها بنيته الشعرية، ونقل هذه الألفاظ من حالتها التقريرية الثابتة إلى حالة إيمائية تنبض بالحياة والشعور. ودراسة المعجم الشعري للنص حسب الموضوعات والحقول الدلالية، هدفها تحديد المكونات الدلالية الأساسية للنص.

### الحقل الدلالي

قبل الكشف عن الحقول الدلالية التي يعجّ بها ديوان "نقوش على جذع نخلة" ليحيى السماوي، جدير بأن نتوقّف عند مفهوم "الحقل الدلالي"، ولسنا بصدد الخوض في هذه النظرية، ولا في تاريخها، لكن سنعمد إلى تبين المفاهيم الأساسية حول هذه النظرية التي تعدّ من أخصب أبواب علم الدلالة في الدراسات اللغوية الحديثة. إنّ علم الدلالة، «فرع من فروع علم اللغة وهو دراسة معنى الألفاظ، والمعنى اللغوي هو العلاقة التي تتحقق باتحاد عنصري العلاقة اللغوية أي الدال والمدلول حيث يوجد بينهما تلاحم وثيق وقد شبههما دي سوسير بورقة ذات الوجهين: أحدهما هو الدال والآخر هو المدلول، فلا يمكن تمزيق أحد الوجهين دون تمزيق الآخر. أي لا يمكن فصل الدال عن المدلول أو العكس» (الضامن، ١٩٨٩: ٧٢). عرّف عبد السلام المسدي الحقل الدلالي بأنه «كل الكلمات التي لها علاقة ما بتلك الكلمة، سواء أكانت علاقة ترادف، أم تضاد، أم تقابل الجزء من الكل، أو الكل من الجزء» (المسدي، ١٩٧٧: ٢٥٠).

والحقل الدلالي يتكوّن من مجموعة من المعاني أو الكلمات المتقاربة التي تتميز بوجود ملامح دلالية مشتركة، وتعبّر عن تصوّر أو رؤية أو موضوع أو فكرة معيّنة. ويرى أحمد مختار عمر، «الحقل الدلالي<sup>١</sup> أو الحقل المعجمي<sup>٢</sup> هو مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع

1. Semantic field
2. Lexical field

عادة تحت لفظ عام يجمعها. مثال ذلك كلمات الألوان في اللغة العربية. فهي تقع تحت المصطلح العام "لون" وتضم ألفاظاً مثل: أحمر، أزرق، أصفر، أخضر، أبيض... أو هو قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبر عن مجال معين من الخبرة» (عمر، ١٩٩٨: ٧٩). أي إنّه مجموع الكلمات التي تترايط فيما بينها من حيث التقارب الدلالي. وتقوم نظرية الحقول الدلالية على أساس تصنيف الألفاظ التي ترتبط فيما بينها ارتباطاً دلاليّاً إلى الحقول المختلفة، لنتمكن من وصفها وتحليلها. وتعتمد الحقول الدلالية على عدد مهم من الألفاظ، فقد تكون أسماء أو أفعال أو صفات، حسب طريقة توزيعها وتوظيفها في النص الشعري. تعد دراسة الحقول الدلالية عاملاً مساعداً في تحليل طبقات لغة النص الشعري، فقد كانت الحرية الشعرية عنصراً محركاً لقرائح الشعراء ورؤاهم الشعرية فانبثقت لها مجموعة من الألفاظ تحمل معها مشاعر وأحاسيس الشعراء، ويتم التعبير عنها من خلال المفردات والصور.

إنّ خصوصية الشاعر في التعبير، ونوع الموضوع الذي يريد التعبير عنه، هما الوجهان لإنتاج الخطاب الشعري عن طريق اختيار المفردات الدالة على ما يريده. ويعتمد الشعراء على انتقاء الألفاظ من معجمهم الخاص الذي قد تكون في ذهنهم، ليكون لهذا المعجم الشعري المتشكل في الذهن هو الأساس الذي يبدي فيه هؤلاء الشعراء إنتاجاتهم الأدبية في صياغات يشعر القارئ من خلالها بالثروة الفكرية الهائلة التي يحتويها النص الشعري والتي تعكس الإلمام الفكري للشاعر. وكل شاعر يستخدم في قصائده مفردات لفظية تشير إلى نقاط متمركزة في تفكيره، وفي رسائله التي يبثها عبر خطابه الشعري، وبعض هذه المفردات يدور حول معنى واحد، لكنها تحمل دلالات متعددة، وقدرة الشاعر على اختيار الكلمات المناسبة التي تعبر عن فكرته التي يود عرضها للمتلقي، تساهم في رفع الشاعر أو خفضه؛ لأن استعمال مفردات معينة لدى شاعر معين يشير إلى أن حالة نفسية خاصة وراء هذا الاستعمال، ولذلك كان لكل شاعر فنان معجمه الشعري وهو حصيلة تكوينه الفكري، وقدرة الخاصة في التقاط المفردة التي تعبر عن معاناته. بناء على ما تقدم؛ يمتلك كل شاعر لغة خاصة تكون معجماً خاصاً به، لكن ليس كل من ينشد الشعر ينطبق عليه هذا المفهوم، بل أن هذا لا يكاد ينطبق إلا على الشاعر الفذ المبدع الذي لا يكون مقلداً إلا في حدود ما تقتضيه الضرورة. ومن الشعراء من يمتلك ألفاظاً وعبارات حادة ومعبرة يبقى أثرها طويلاً في النفس وهذا ما يميز شاعراً عن الآخر، وهذا ما نستشفه في السماوي، وله رؤيته الشعرية والإبداعية الخاصة وله معجمه

الشعري. وما توصلنا إليه في مجال البحث عن الحقول الدلالية في الديوان، وبعد قراءتنا المتعددة للقصائد تكشف لنا أنّ مضامين الديوان من حيث مفرداتها وعباراتها ومعانيها يمكن تقسيمها إلى ثلاثة حقول دلالية، وفيما يأتي دراسة لهذه الحقول.

#### الحقول الدلالية في الديوان

إنّ ديوان "نقوش على جذع نخلة" يصلح درساً في الوطنية، فقد كرّس الشاعر فيه كلّ ما يمكن قوله في وطنه العراق المملوء بالمآسي والمفارقات، ويضمّنه تساؤلاته الوطنية ومشاعره المتلبسة بالحزن والأسى التي تتفاوت بين اليأس والأمل بشأن هذا الوطن الذي يشعر بالغربة عنه في جميع أحواله. بناء على ما تقدم؛ قمنا بتحديد أهم الحقول الدلالية التي دار حولها البنيان الشعري للسماوي في ديوان "نقوش على جذع نخلة". والمعجم الشعري عند الشاعر يدور حول حقول دلالية عديدة وأهمها: حقل الأرض والوطن، حقل الأمل والحزن، وحقل الجهاد والمقاومة.

#### حقل الأرض والوطن

قد أدرك الشاعر العربي منذ العصر الجاهلي أهمية المكان في بناء القصيدة وتشكيل الصورة الشعرية، فوقف على الأطلال، واستذكر دياره ومنازل المحبوبة، وحمل هذه الأماكن دلالات نفسية ووجدانية، كما أضفى عليها أحاسيسه ومشاعره. «ومن المؤكد أنّ البيئة تؤثر في تكوين شخصية الإنسان، كما أنّ العمل الذي يمارسه الإنسان يسهم في صقل شخصيته، وهذان المؤثران (البيئة والعمل)، يسهمان كل الإسهام في تشكيل المعجم اللغوي الخاص بكل إنسان على حدة» (التميمي، ٢٠٠١: ٢١٧). أنّ الأديب لا يستطيع اعتزال مجتمعه والابتعاد عن قضايا الناس ومشاكلهم وهمومهم وآلامهم؛ و«حس المكان حس أصيل وعميق في الوجدان البشري، وخصوصاً إذا كان المكان هو وطن الألفة، والانتماء الذي يمثّل حالة الارتباط برحم الأرض ويرتبط بهناء الطفولة، وصبايات الصبا، ويزداد هذا الحس شحذاً إذا ما تعرض المكان للفقد أو الضياع» (عثمان، ١٩٨٦: ٧٦).

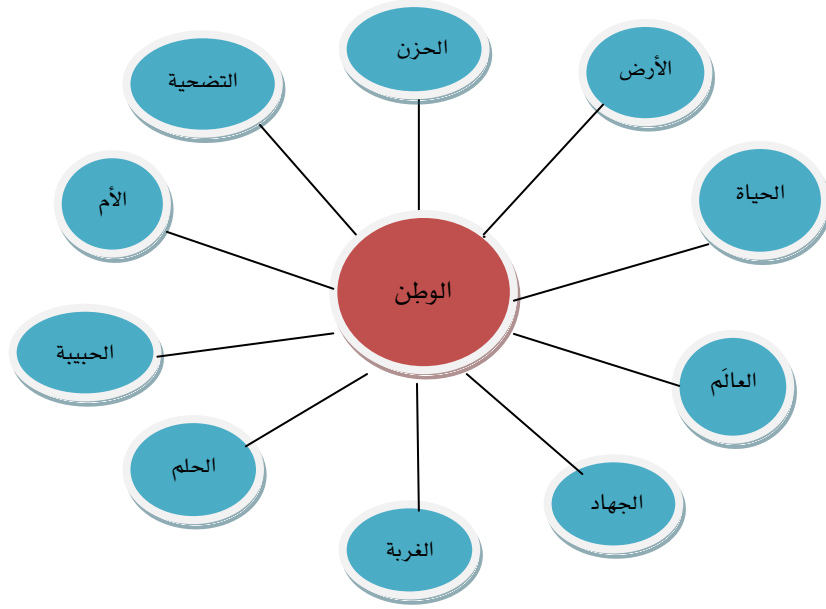
المكان جزء من الهوية باعتباره انتماء للأرض ومراجعة لذاكرة الوطن، هذه العلاقة التي تبدو بسيطة هي التي يقوم عليها إنتاج المكان شعرياً وفق تصورات سياسية وتاريخية تمتد من خيال الصورة وآفاقها الدلالية إلى وقع المكان في الذات بارتباطاته النفسية والاجتماعية والثقافية. «ينطلق المبدع فيما يكتب من موقع جغرافي خاص به، ويكتسب هذا الموقع عنده



سمات خاصة تميّزه عن غيره من المواقع والأماكن، وغالباً ما يرتبط المبدع بعلاقات حميمة بالمكان الذي نشأ وترعرع فيه، وتنعكس هذه العلاقات فيما يبدع، كما يؤثر المكان في خطاب المبدع؛ فالشاعر يستحضر صورته الشعرية من كل ما هو مائلٌ في المكان الذي أحبه وارتبط به ارتباطاً مشيمياً، ويستحضر القاص شخصه وأحداث قصته أو روايته مما يحيط به، فالمكان - الوطن - بجمالياته ودلالاته وإيحاءاته وإيماءاته هو من أهم العناصر التي تسهم إسهاماً عظيماً في تشكيل العمل الإبداعي ونسجه وبنائه، ولذلك فإنّ المكان - الوطن - يصبح عند المبدع هوية تاريخية ووطنية ونفسية واجتماعية وثقافية» (التميمي، ٢٠٠٢: ٢٢٤).

وكثيراً ما يعلن الشعراء عن هذه العلاقة، فتبدو العلاقة نوعاً من حالات العشق تتوحد خلالها الذات بالأمكنة. وقد عني الشاعر بتصوير المجتمع العراقي ومآسيه بكل أبعاده وتوجهاته، وقد ملكت العراق ومدنه - خاصة السماوة - مشاعره وأحاسيسه ووجدانه ولبّه، وغدا كل شيء فيها مثار إعجابه واشتياقه وتعلقه بها. حينما نحاول البحث عن المكان في نص السماوي، نجد قائماً في ذات الشاعر، فالعراق لم تغب عن باله وهمومه بل تتغلغل في وجوده. وإنما يؤكد تشبته وتلاحمه بالوطن قائلاً: «أعتقد أنّ العراقيين من أكثر شعوب الدنيا تشبثاً بأوطانهم، لذلك فهم حين يغادرون الوطن هرباً منه فإنهم يحملونه معهم! قبل شهور كنت في دمشق لغرض طبع كتاب في دار التكوين في منطقة الحلبوني وسط دمشق، زوجتي أوصتني بشراء كتاب فقيل لي إنه توجد في مكتبة في السيدة زينب، ذهبت إلى السيدة زينب، لغرض شراء الكتاب وقبل سؤالي عنه في المكتبة سمعت أحد سائقي سيارات النقل يصيح "نفر واحد للسماوة" فإذا بي أدخل السيارة حتى دون الرجوع إلى الفندق لأخذ حقيبتي وملابس و...» (الغرباوي، ٢٠١٠، ج١: ٣٧٦). من هنا يتبدى لنا مدى تشبته بالسماوة - الوطن - فالعلاقة بينهما جذرية وقد انصهرت به والتحم بها التحاماً كلياً.

عند متابعة المعجم الشعري لدى شاعرنا في ديوان "نقوش على جذع نخلة" نلاحظ أنه يدور في محاور دلالية التي تشكل مساحة كبيرة من ديوانه ومن أهم هذه المحاور التي غطت مساحة واسعة من معجمه الشعري هي حقل الأرض والوطن وقد حضرت مفرداته بشكل مكثف في النص الشعري وقد شحنت دلالة هذا الحقل بدوال تكاد تستعصى على الحصر. شكلت علاقة الشاعر بالوطن جوهر قصائده من حيث مضامينها، فقد التصق بالوطن إلى حدّ الانصهار التام، وانعكس ذلك في شعره بشكل مباشر؛ فإنه يشكل البؤرة الدلالية للخطاب الشعري السماوي:



المخطط ١. البؤرة الدلالية للخطاب الشعري السماوي

لقد أفرزت الدراسة السياقية لدال الوطن أبعاداً ومفاهيماً متعددة؛ فكان الوطن هو الأرض هو الحبيبة هو المكان هو الحلم هو الأم... إلخ؛ بحيث تتداخل الموضوعات وتتشترك في نفس الحقل، إذ تشكل مفردات الأرض أهم دلالات الوطن وهي كلها ترتبط بنفس العلاقة المتداخلة بين الشاعر والوطن. إن علاقة الشاعر بالوطن علاقة حميمة تقوم على التوحد والتقدير. «يتصل حبّ الوطن منشوداً ومأمولاً بالشاعر إلى درجة الفداء والتضحية ونكران الذات وهو بحبّه اللا مشروط واللا محدود لمسقط روحه يسمو فوق جميع الاعتبارات والحسابات التي لا تتماشى مع منطق القلب والوجدان» (العوني، ٢٠١٠: ٢٤٥).

إذا أورد البحث أنّ حقل الأرض والوطن هو القضية الجوهرية التي شكلت البؤرة الدلالية للخطاب الشعري للسماوي فإنّ هذه المقدمة تحتاج إلى تفصيل وتحليل ليثبت أبعادها وعلاقتها من خلال رصد مختلف التحولات الناتجة عنها. فإنّ الدوائر التي تشكل هذا المحور تستعصى على الحصر؛ لأنّ السماوي قد أشرب المعنى الوطني معظم مفردات معجمه الشعري، واصطبغ بصبغة وطنية بالتصريح تارة أو بالإيماء. فهذا الجدول للحقل الدلالي لأهم الألفاظ والمفردات ومتعلقاتها الدالة على الوطن:

الجدول ١. أهم الألفاظ والمفردات وامتداداتها الدالة على الوطن

الأرض	العراق	السماوة	الشجر	فردوس	الدار	مائدة	الأب	الحرية	العصافير	الشعوب
الفرات	بغداد	البلدة	أغصان	حديقة	الخيمة	الخبز	الأم	التحرير	الحمامة	نجدة
أنهار	الرافدين	وطن	الزنبقة	الخريف	الخيام	التور	الأحفاد	السيادة	جثة	فسحة
البستان	السومري	مملكة	السنبيل	الربيع	الصور	أرغفة	الأبناء	العزم	طيوب	الطيب
التخيل	الأكدي	البلد	الهديل	التبع	الجسر	جياح	الطفولة	الشرف	جهنم	الأرحام
طين	البابل	الأوطان	البرتقال	السعف	المرقات	الرغيف	الأمان	الرشاد	النيران	الأزقة
التراب	الأنبار	الشمال	القرنفل	العرجون	مأواه	يجوع	العصمة	الخير	فراشات	تستعاد
دجلة	الكوفة	المدينة	البنفسج	الرماد	البيوت	وجاق	طهر	القوم	ليلي	استدار
الرياحين	البصرة	القري	بيادر	الحوص	القصر	عُراة	الشيخ	الجزور	الأحبة	دك
ابن دجلة	الفلوجة	أكوخ	الزهور	أرصفة	رحاب	اليتيم	الحضن	كبرياء	الرشيد	أسر
شواطئ	الكويت	الواحات	التمر	أسواق	أهل	المشردين	أضلاع	العز	المعتصم	المحكوم
العشب	كربلاء	الجنوب	البحر	العش	القبيلة	الحفاة	الحيبية	كرامة	النساء	الإعدام

إنّ السماوي قد انصهر بوطنه انصهاراً تاماً وخصص شعره لتصوير العلاقة القائمة بينه وبين الوطن الجريح. إنّ الشاعر وسع من إطاره الدلالي فأصبح أكثر اتساعاً وشمولاً؛ فالوطن بجراحه ونخيله وبساتينه وترابه وعصافيره ومآسيه، قضية جوهرية ملكت على الشاعر احساساته ومشاعره. فهو الحبيبة، وهو الأرض وهو الأم، وهو الحياة... وهذه العلاقة القائمة بين الشاعر ووطنه سبباً مباشراً في إضفاء الشعور بالمرارة وقد تجلى ذلك بشكل واضح في شعره، فهي توحى بالخراب والدمار الذي خلفه الاحتلال. ومع هذا فإنه يمكن القول إنّ هذه الدلالات المتنوعة يجمعها حقل دلالي مشترك يتمثل في توحيد الشاعر بالأرض لا في أبعادها الجغرافية فحسب، ولكن في أبعادها الدينية، والتاريخية، ورموزها النفسية والشعورية.

فالأرض/ الوطن يمثلها قول الشاعر: (السماوي، ٢٠٠٥: ٢١)

شَبَّعَ الردى والقَهْرُ من دمهم      (مُحَرِّري) المزعومُ ما شَبَّعَا  
 أسْفَى على بغداد كيف غَدَتْ      ... سوفاً وأنجمُ مجدِها سِلافاً  
 قد كان يربطني بهودجها      ... خَيطٌ من الأمالِ وأنقَطَعَا

يلاحظ أن لغة الشاعر استمدت ألفاظها من واقع العراق الجريح، مثل (الردى، القهر، المحرر المزعوم، أسف) وكان لهذه الصورة وقعها الخاص في نفس الشاعر، فهي توحى بالخراب والدمار الذي خلفه الاحتلال، كما تبعث في النفس الحزن والألم على الماضي الذي يضم شعبه

وتاريخه إذ شاهد ما حل بالعراق وما أعقب ذلك من المآسي والتشرد وصور الدماء. وتبرز قدرة الشاعر في فن صياغته للألفاظ ذات الإيحاء، ومهارته في انتقاء المعبر منها، ليصل إلى صميم موضوعه قبل التفاصيل، وتبعث هذه الأبيات في نفوس الشعب روح التفاعل والدفاع عن الوطن، وتعميق الشعور بالانتماء إليه، وتحثهم كذلك على توثيق أواصر الارتباط بالأرض وإعمارها وحمايتها من الإحتلال، وتسعى أيضاً إلى استنهاض الهمم بالتركيز على أمجاد الوطن وفضائله، والالتفات إلى تاريخه وبطولات أبنائه في سبيل عزته ورفعته. فالشاعر هنا يؤكد أن المحرر المزعوم (الاحتلال الأمريكي) ما جاء لتحرير الوطن بل لاحتلاله تحت شعار حرية زائف، وهو من خلال تركيب "شعب الردى وما شبعاً" يبين الواقع المؤلم الراهن في العراق من سيطرة الظلم وسفك الدماء والسفاحين الأمريكيين على العراق. وينفي أن تكون في ظل الإحتلال حرية وكرامة، إنما مأس وقتل وافلاس منذ البداية حتى النهاية.

يصور الشاعر أحاسيسه ومشاعره الداخلية، بعد أن دخل إلى أعماق نفسه، ليصف لنا ما يدور فيها من خواطر ومشاعر وآمال وأحلام. ويحرص على أن يجعل من الكلمات قوة فاعلة لإيقاظ حس الانتماء للأمة في أبناء عصره، وبعث الهممة والتبصير بالواقع، قوله: (السماوي، ٢٠٠٥: ٧٢-٧٣)

مُتَّقِرِحِ الْأَنْهَارِ وَالْوَحَاةِ	اللَّهِ مَا أَحْلَى الْعِرَاقَ وَإِنْ بَدَا
سَأْنَالُ مِنْهُ بِالْأَلْفِ أَلْفِ أَدَاةِ	سَامَحَتْ جِلَادِي وَكُنْتُ ظَنَّتُنِي
طَرَدَ الضَّيَاءُ جَحَافِلَ الظُّلْمَاتِ	وَطَرَدْتُ مِنْ قَلْبِي الضَّغْبِيَّةَ مِثْلَمَا
شَجَرًا أَفْيءُ بِهِ دَرُوبَ حُفَاةِ	فَوَدَدْتُ لَوْ أَنِّي عَرَسْتُ أَضَالَعِي
وَحَفِيْرَةً لِعَدِي تَضْمُّ رُفَاتِي	جَهْرَ لِيَوْمِي فِي رَحَابِكَ فُسْحَةً

حينما نعود إلى هذا النص الذي انتسجت فيه هذه الكلمات نجد أن الشاعر وضعها في تراكيب وتعبيرات تستجيب للغة التي أراد لها أن تتناسب مع تجربته الشعورية. ومن اللافت في النظر، أنه اعتمد على الكلمات التي تدور في محور العنف والقسوة والبطش، لإعطاء صورة عن أعمال الإحتلال في العراق. ولعلنا بالتأمل في هذه الأبيات نلاحظ ما تضمنته قوافيها من مدات - واحات، أداة، ظلمات، حُفَاة، رفات - ولعل الشاعر يشعر معها بالارتياح النفسي؛ لأنه يستنفذ كل شعوره ووجدته المتوقد، من خلال ما تسعفه به هذه المدات من طول نفس، فكأنه يتأوه من خلالها لإظهار ما يجيش في نفسه من شعور. ويتوحد الشاعر بالأرض - العراق - من جانب، وبآلام الشعب من جانب آخر، بحيث يصبح ارتباطه بها ارتباطاً عضوياً، وتبرز الذات

المتكلمة بروزا قويا على مستوى الصياغة، متمثلة في الضمير المتصل "ت" في أكثر الأسطر لتعميق الشعور بالانتماء إلى الوطن، وهذا يؤكد حالة الترابط الوجداني ما بين الشاعر والوطن، وما يقصده من ضرورة الحفاظ على الأرض والوطن، من خلال المشاعر الجياشة التي يحاول بثها في نفوس الشعب. وقد يلتفت الشاعر إلى حال أمته الراهن في تحاذله، وضعفه، وهوانه في مقابل الماضي المشرق الذي كانت عليه، فيندفع إلى المعاتبة، واللوم موظفاً بعضاً من هذه الألفاظ والتراكيب؛ للتعبير باللغة التي تثير في ذهن دلالة الارتباط بالماضي الزماني والمكاني المتمثل بالتراث التاريخي. وذلك قوله: (السماوي، ٢٠٠٥: ١٦٥-١٦٦)

هل هذه بغداد؟ كنتُ عرَفْتُها	... تَأبَى مَهَادَنَةَ الدَّخِيلِ العَاقِ
تَأبَى مُسَاوَمَةً عَلَى شَرَفِ الهَوَى	فَتَذُودُ دُونَ شَذَاهُ بِالْأَرْمَاقِ
وَرَبَّتْ عَنِ (الْمَنْصُورِ) صَهْوَةَ عَزْمِهِ	... وَعَنِ (الحَسِينِ) مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ
هل هذه بغداد؟ تَأْكُلُ تُدِّيهِ	... فإِذَا بَهَا وَخُؤُونَهَا بِوَفَاقِ!
هَذَا عِرَاقُكَ يَا (رَشِيدُ) كِبَا بِهِ	... جَوْرٌ وَعَدْوَانٌ وَفَأْسُ شِقَاقِ

نجد في هذه الأبيات القدرة الفائقة على صياغة الأفكار والمفاهيم وطرحها في إطار شعري عبر مجموعة من الجمل المتناسقة والتعابير السليمة، فالأفكار التي يسوقها الشاعر في هذا النص تقوم على مبدأ استخلاص العبرة والموعظة وحسن التبصر من خلال إظهار التناقض والتضاد في الماضي والحاضر. هذه العلاقة بالوطن استدعى التراجع إلى التراث والعودة إلى الماضي والتأكيد على التاريخ وحضارة هذا الشعب العريق؛ فهو يستحضر ما في الذاكرة لتعميق صورة الواقع وإبرازها بوضوح ليحضرها في نفس المتلقي.

فإذا دققنا النظر في ألفاظه ذات الإيحاء وجدنا أنها تحمل معنيين؛ الأول يحمل معاني الصمود والشرف والمجد؛ - الحسين عليه السلام، مكارم الأخلاق، العزم، المنصور، الرشيد - والثاني يحمل معاني مظلمة متخاذلة؛ - الدخيل، خؤون، جور، عدوان، فأس شقاق - وبالمزج بينهما يسهل علينا تحديد نوع معاناة الشاعر عبر تداخلات إيحاءاتها، لنشعر في النهاية أنه يأسى على كبريائه الضائع ويرتقب عودته. فاندفع في تساؤل مرير كيف ضاع بغداد؟ وضاع المجد؟ وضاع التاريخ. أين العراق وقد تهدمت بغداده ومدنه وحرثت قتال بتناغون بساتينه؛ إن هذا السؤال المرير: "هل هذه بغداد؟" هو الباعث وراء هذا الخطاب المعاتب للأمة، وهو الدافع إلى تصوير الماضي الجميل في مقابل الحاضر المتردي، وتشخيص الداء الذي أفضى إلى هذا

الحال. فتبقى "بغداد" مثاراً للتساؤل أمام القارئ، ويشير الجدل حول ذلك الواقع. إذن نجد دلالة واضحة من خلال صياغة السماوي لهذه المفردات، فعبر عن رفضه لهذا الواقع المر الذي عايشه بكل أطيافه، ويحاول نقل الواقع الراهن في ضوء التواصل التاريخي.

وقد اكتسبت علاقة الشاعر بوطنه سمة القداسة والطهر الذي يتأتى من امتزاج الدماء بثرى الوطن، ومن اندغام الشاعر بالمأساة التي تعرض لها وطنه. وقوله: (السماوي، ٢٠٠٥: ٧-٨)

هذه الأرضُ التي نَعَشَقُ / لا تُتَبِّتُ وردَ الياسمينَ / للغزاة الطامعينَ / والفراتُ  
الفضلُ / لا يُجَبُّ زيتوناً وتينَ / في ظلال المارقينَ / فاخرجوا من وطني المذبوح  
شعباً / وبساتين... / وأنهاراً... / وطنينَ / فاتركونا بسلامٍ آمنينَ / نحن لا نستبدلُ  
الخنزيرَ بالذئبِ / ولا الطاعونَ بالسلِّ / وموتاً بالجدامِ / فاخرجوا من وطني /  
خوذةً المحتلِّ لن تُصَبِّحَ / عُشاً للحمامِ.

كانت العلاقة المقدسة بين الشاعر ووطنه سبباً مباشراً في إضفاء الشعور بالمرارة المزوجة بالتمرد والثورة في شعره، لا نستطيع أن نفصل بين الشاعر والوطن، وليس هناك حدود وفواصل، بل حالة من التوحد والانصهار بين الشاعر ووطنه. تكشف الصياغة اللغوية عن موقف مأساوي يعيشه الشاعر، وهو موقف الألم والحزن والدمار والجراح. والملاحظ: أن النبرة المأساوية تسيطر على الشاعر في الأسطر سيطرة شاملة من خلال استخدامه للألفاظ والكلمات، وهذا ما نلمسه جلياً أن الكلمات والتراكيب لدى الشاعر، مؤثرة بما تحمل من شحنات شعورية حزينة جريحة، (غزاة الطامعين، المارقين، وطني المذبوح، الخنزير، الذئب، الطاعون، السل، موت، جدام)، لينقل تعبيره عن رؤية هذه الجراح والدمار، وهذه الألفاظ كاشفة عن عمق الجرح والألم الذي يعاني منه الشاعر إزاء ما تمر بالعراق. ويتكون المعجم الشعري لدى الشاعر من حصيلة هذه المفردات التي تختزن في نفسه، وتكون محملة بدلالات نفسية نحو إبراز معاناته تجاه الوطن. فهذه الدلالات تطفو على سطح أشعاره، ناقلة تجربة حقيقية لشاعر عانى من الألم والحزن والمآسي... وهي مدلولات كثيرة، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائد الديوان من هذه المفردات أو معانيها. فالمفردات (الأرض، الياسمين، الفرات، زيتون، تين، بساتين، أنهار، عُش، حمام) كلها تنصب في الاتجاه الوطني من هذا المعجم الغني بمفرداته. كما نرى أنه، يستعير بعض التعابير والألفاظ القرآنية لخلق نوع من التداخل والانسجام بين نصوصه الشعرية والتعابير القرآنية، لشحن العبارة بكم هائل من القداسة والإيحاء، فهو يستقي مفردات "التين والزيتون" اللذين أقسم بهما الله، ﴿وَالَّتِينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ

سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿التين/ ١-٣﴾، فيرفع الشاعر الوطن وترابه إلى مرتبة القداسة؛ فهذا الانسجام والتداخل، جعل النص أشد تأثيراً وأعمق نفوذاً.

تتحد علاقة الشاعر بالوطن، ووصل الأمر بشاعرنا في حبه لوطنه إلى حالة الوله والعشق الصوفي الذي تفتى فيه ويتوحد الشاعر بشعبه بالتوحد مع دوال الوطن؛ وينصهر بوطنه انصهاراً تاماً. تتسع دائرة الوطن عند السماوي لتشمل الحبيبة ويصبح الوطن هو المعشوقة: (السماوي، ٢٠٠٥: ٧٤-٧٥)

هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّ حَظَّكَ فِي الْهَوَى	حَظُّ (ابنِ عَدْرَةَ) فِي هَيَامِ (مَهَاةِ)
يَا صَابِرًا عَقْدَيْنِ إِلَّا بَضْعَةً	... عَنْ خَبَزِ تَوْرٍ وَكَأْسِ فُرَاتِ
لِيَاكَ فِي حُضْنِ الْغَرِيبِ يَشِدُّهَا	... لِسَرِيرِهِ حَبْلٌ مِنَ السُّرْفَاتِ
تَبْكِي وَتَسْتَبْكِي وَلَكِنْ لَا فَتَى	... فَيَفْكَ أَسْرَ سَبِيئَةٍ مُدْمَاةِ
يَا صَابِرًا عَقْدَيْنِ إِلَّا بَضْعَةً	... (لَيْلَى) مُكَبَّلَةٌ بِقَيْدِ (غَزَاةِ)
لِيَاكَ مَا خَانَتْ هَوَاكَ وَإِنَّمَا	... (هَبْلُ الْجَدِيدِ) بِزِيِّ (دَوْلَارَاتِ)
إِنَّ (الْمَرِيضَةَ) فِي الْعِرَاقِ عِرَاقَةٌ	... أَمَّا الطَّيِّبُ فَمَبْضَعُ الشَّهَوَاتِ

تمثل الوطن بالنسبة للسماوي تراثه وتاريخه وكيانه ومستقبله وحبيته، هو كل شيء في حياته. إننا ندرك بوضوح عمق هيامه بوطنه، وصدق تعلقه به وفي ظل هذا التلازم العميق بين الوطن والشاعر شكلت نصوصه الشعرية، وتوهجت شعلته وهو يؤدي لحن العاشق للوطن، إنه الحب والانتماء الذي يضرب بجذوره في أعماق هذه الأرض، حيث تتفجر من كيان السماوي هذه المعاني لتجسد أجمل معاني الانتماء والحب. فيبدأ المشهد التمثيلي بتوجه الأنظار نحو ابن عدرة (السماوي) ومعشوقته ليلي (الوطن)؛ أمّا معشوقة السماوي في حُضْنِ الْغَرِيبِ، مكبلة بقيد الغزاة! وقد سلبها الاحتلال. فهو «عاد إلى وطنه بعد طول غياب وضنى واغتراب ليجد محبوبته/ ليلاه/ عراقه بين أحضان الغريب! تماماً كحال ابن عدرة (قيس بن الملوح العامري) الذي صبر على معاناة حبه ليلي وتشرده بعيداً عن القبيلة سنياً، حتى فوجئ في لحظة العودة أن ليلاه في حُضْنِ آخِرِ غَرِيبٍ. هكذا بدت العراق بالنسبة للشاعر» (خفاجي، ٢٠١٠: ١٨١).

فالشاعر يلخص علاقته بالوطن من خلال الحبيبة. فتستشف منها صدق الانتماء وحرارة العاطفة لأنّ الوطن في مفهوم الشاعر عشق ومعاناة وتضحية وتشرد وقد تشرب نفسه كل تلك المعاني. فليلى تعكس الحب الصادق، والانتماء والإخلاص والعلاقة الحميمة؛ بين هذا الطرف ليلي/ الوطن، والطرف الآخر قيس/ الشاعر. ومن خلال قراءتنا المتأملّة لهذه الأبيات، يتبين

لنا أن التلاحم والانسجام بين القافية ومضامين القصيدة واضحة؛ ويظهر دور القافية في تحقيق وظيفة دلالية في أجزاء القصيدة وتعبير عن المعنى وإظهاره ولفت الانتباه إلى دلالات النص. والقوافي في هذه الأبيات (فُرات، السُرُفات، مُدْماة، غُزاة، دولارات، الشهوات) غير نافرة، وما جاءت عنصراً تزيينياً قابلاً للحذف، بل القارئ المتأمل يدرك أن هذه الكلمات تشكل معجمه الشعري وأكثرها هيمنة على سائر الكلمات وأشدها تأثيراً عليها.

كذلك قوله: (السماوي، ٢٠٠٥: ٤٥-٤٦)

أنا (قَيْسُك) المطرودُ خيمتهُ	بينَ الخيامِ يتيمةُ الوتدِ!
يا حُزْنَ ماضي العمرِ يا أبتي	يا صَبْرَ باقي العمرِ يا ولدي
رِفْقاً بِعُكَّازي فَقَدَ وَهْنَتُ	ساقِي وأحداقي بلا مَدَدِ

تمثل هذه الأبيات حالة الهمم، والحزن، والألم المكبوت الذي خالط قلب الشاعر، وهو هم يريد الشاعر أن يخرج به من دائرة الإحساس إلى الشعر. نلاحظ أن الشاعر قد تقنع بشخصية "قيس بن ملح" - مجنون ليلي - الذي من أجلها جاب الصحارى وشرذ وعاف الديار حتى ذهب عقله؛ فكما كان "قيس" مجنوناً ليلي، هو مجنون العراق رغم بعده عنه؛ ولا يخفى أن ليلي المحبوبة لدى الشاعر هي الوطن، الذي يهيم به كما هام المجنون بليلا. وهذه العلاقة القائمة بين الشاعر ووطنه سبباً مباشراً في إضفاء الشعور بالمرارة. كما يقول نفسه: «لقد أحببت العراق إلى حدود الكراهية، فالحب قد يتحول إلى حقد حين يأخذ شكل الجنون، صدقني إنه أنثاي الذهبية ووردة الحلم، ومع ذلك، فالعراق هو أيضاً الخنجر المزروع في قلبي: أخشى أن أستخرجه فأموت أو أن أبقيه فأشقي!» (القرني، ٢٠٠٨: ٣٩-٤٠). وهي الحالة التي يسقطها الشاعر على نفسه وعلى حبيبته - وطنه - بأسلوب حوار عميق دال على شدة حنين الشاعر إلى بلده بعد أن سفك المحتلون دماءه. وكان لتكرار النداء، أثره في إبراز موقف الشاعر ومساوئته، وهنا النداء ذو دلالة نفسية، والأبيات تعبر عن الآلام التي أحقدت بالشاعر في الغربة التي أصبح الشاعر في حزن وأسى عميقين. إذ كان النداء، بمثابة تلك الزفرة أو ذلك الأنين الذي يخرج من صدر الشاعر للتفيس عن الألم الضاغظ المحاط به وهو يعاني ألم الغربة عن الأهل والوطن. والملاحظ هنا؛ اعتماد الشاعر وتركيزه على تكرار النداء رغبة في التفيس عن الضغط والحزن الذي يعانيه.

وعلى هذا، يصير كل مظهر من مظاهر الوطن عالماً بفكره، والباحث في شعره يجده يهتم بالمفردات الطبيعية اهتماماً واضحاً، ويولد من استعمالها سلسلة من المعاني السياقية التي نقلها من دلالاتها المعجمية إلى دلالات جديدة. واستخدام هذه ألفاظ ذات الإيحاء في شعر السماوي،



يبرز رؤية الشاعر الخاصة تجاه ما يمر بالعراق وتحمل الألفاظ آفاقاً رحبة وإيحاءات كثيفة وتبرز قدرة الشاعر في اكتشافه للعلاقات العميقة التي تربطه بهذه الأرض. علاقة الشاعر بشجرة "النخيل" حميمة إذ اشتهرت وطنه الجريح بزراعتها ويبدو أن أكثر ما يلحظ في تكراره لها توظيفها لانتمائه وتشبثه بالوطن على رغم بعده عنه. فيربط بين نفسه الحزينة وطين الوطن من خلال ذكر هذه الشجرة لنشم رائحة الوطن والحنين إليه. وذلك قوله: (السماوي، ٢٠٠٥: ١٢)

حاشاك تنشر للغزاة وروداً      فلقد خلقت كما النخيل عنيدا  
لا زال فيك من (الحسين) بقيةً      ... تأبى الخنوع وإن تباح وريداً

النخل هنا؛ مظهر من مظاهر الوطن، فقد جعل الشاعر من النخل رمزاً للشعب العراقي بشموخه وكبريائه، ويوحى بالأصالة والثبات والمقاومة. هذه الشجرة تمثل أبعاداً كثيرة ويصبح النخل قيمة مثيرة للتذكير بالوطن وأحزانه وجراحه. أن العراق تعتبر من أكبر الدول العربية غرساً للنخيل وهي رمز من رموز الطبيعة العراقية التي اختارها الشاعر عنواناً لديوانه "نقوش على جذع نخلة"، فقد عمد الشاعر في هذه المجموعة إلى نحت عنوان ذات الصبغة الإيحائية؛ فـ"النخل" هنا هو العراق، فهو مستمد من بيئة الشاعر الخاصة؛ لأن تعتبر العراق من أكبر دول العربية غرساً للنخيل، وهو حاضرة في كل قصائد هذا الديوان. أن النخل والمفردات المتصلة به كالجذع والعدوق، من أكثر المفردات الطبيعية شيوعاً في الديوان حيث كررت (٤٢) مرة. و"النقوش" هي الكلمات والآهات التي تطحن صدر الشاعر على جرح النخيل (الوطن)، وتجسد مآسيه ودماره. ومن هنا، كانت تسمية الديوان تسمية مقصودة، توحى بالوطن وأحزانه. وهذه الرمزية للنخيل لا تنحصر في هذا الديوان فحسب، وإنما هي موجودة في دواوينه الأخرى. ويذكر الشاعر النخيل في كثير من قصائده الذي يتميز بالصمود، ورمزيته للطبيعة العراقية هي استمرار التعلق بالوطن ومشاركته في آلامه. وأنه يوظفها في سياقات مختلفة ولا تنحصر فيه الدلالة، بل تعدد بتعدد سياقاتها وهي من أكثر الرموز شيوعاً وتواتراً في شعره.

ولعمق العلاقة بين "الوطن والنخيل" فإن الحزن والجراح التي يخيم على أبناء الشعب العراقي، يترك أثراً واضحاً في النخيل، وتصير رمزاً للفجيعة والمذلة والانكسار وهي مصلوية بفعل جرائم الاحتلال والارهاب والطائفية، وهي تستصرخ أبناء الشعب العراقي للتكاتف، من أجل حمايتها ودفاع عنها وتحريرها. منها قوله: (السماوي، ٢٠٠٥: ٢٠)

لا تسألني الصبر لو جزعاً      ما دام فأس الدلّ قد وقعا  
زار السديار ضحى فأرعبه      أن الفرات ونخله أفترعاً

"النخل" في هذا السياق رمز للمدّة والهوان، والجراح، التي يُعانيها الشعب العراقي في ظل الاحتلال الأمريكي وديمقراطيته المزعومة. وفي ظل الاستعمار لا كرامة لحي بل الإهانة منذ البداية حتى النهاية، وهو لمس بنفسه كم تحول وطنه العزيز إلى معتقل تداس فيه الكرامة والعزة، والنخل الذي عشقه اسودت عسبانه من دخان النار، فيخلع الشاعر على النخل حسرته وألمه مما تمر في المدن العراقية من عنف وشراسة المحتل أو عملائه. كما يصير في موضع آخر ليصبح أسمى وأعمق، ليصبح النخل دلالة على الوجود والكيان والتشبث، كما نرى في قوله: (السماوي، ٢٠٠٥: ٥٦)

فلأنّ لي طبعَ النخيلِ تشبُّباً      ولأنّ صَوْنَ العهدِ من أخلاقي

فالنخل هنا: رمز الأصالة والتشبث والانتماء بالوطن؛ لأنه جزء من هذه الأرض التي عشقتها بكل معطياته، والسماوي يتوحد مع الأرض من فرط حبه لها وعشقه وهيامه بها وهذا دليل على الرابطة القوية التي ترتبط بين الشاعر والأرض ونباتاتها. وهناك دلالات مختلفة ارتبطت بمجموعة من هذه النباتات، فالنخل يصبح معادلاً للأهل ويشارك في المقاومة: (السماوي، ٢٠٠٥: ١١)

فاخرجوا من وطني... / وامنحونا فرصة الدفن لموتانا / وأن نُخْرِجَ من تحتِ  
الركامِ / جثّاً ما بلغتْ عمرَ الفِطامِ / فاخرجوا / من قبل أن ينتفضَ النخلُ العراقيُّ /  
ويستلُّ سيوفَ الانتقامِ.

ارتبطت نباتات الوطن بالشموخ والإباء فهي كإنسان هذا الوطن. يشارك النخل العراقي في المقاومة وطرد المحتل ويلتقي مع الأبطال في صموده ومقاومته. ويذكر الشاعر النخيل في كثير من قصائده الذي يتميز بالصمود، ورمزيته للطبيعة العراقية هي استمرار التعلق بالوطن ومشاركته في آلامه. إذن نلاحظ: أنّ رمزية النخيل مكثفة في شعره، وفيها دلالات متعددة على الواقع الذي تحمله رمزاً على الوطن. ويذكره في كثير من قصائده. وقوله: (السماوي، ٢٠٠٥: ١٢٦-١٢٧)

متى يُغادرُ الأعرابُ / بستاننا / فيستعيدُ النخلُ كبرياءه / ويستعيدُ طهره التراب؟

ومن هنا نصل إلى أنّ علاقة الشاعر بالنخل ليست علاقة وصف أو استمتاع، ولا يسلك مسلك شعراء الطبيعة الذين يهتمون بالوصف الحسي، إنما هي علاقة مشاركة وارتباط تحمل أبعاداً وطنية. وهذا دليل على الرابطة القوية التي تربطه بالأرض ونباتاتها. وبذلك استطاع أن يقيم علاقة وجود وفناء بينه وبين "النخيل"، ويضفي عليها من صفات وخصائص البشرية، ما يجعلنا نحس بأننا أمام نبات من نوع مختلف، يحس ويشعر ما يشعر الإنسان من ألم واللوعة والأسى. بناء على ما تقدم؛ يلاحظ أنّ الشاعر قد انصهر بوطنه انصهاراً تاماً ووقف شعره

لتصوير العلاقة القائمة بينه وبين الوطن الجريح، ونستشف من قصائده صدق الانتماء وحرارة العاطفة. والوطن جنته وجحيمه معاً وهو كل شيء في حياته. كما يصرح السماوي في أجمل صورة عن انتمائه بوطنه بقوله: «من عيوي أنني رجل بكاء أعني أن تحت عباءة كهولتي يختبئ طفلٌ شديد التعلق بدميته الوحيدة لذا يمزق في كثير من الأحيان عباءة الوقار ليخرج منها فيبكي كالمدوغ حين يجد أن دميته ليست معه على وسادته حتى حين يقدم له ذوه دمية أخرى ربما تكون أجمل من دميته تلك، قد لا أكون مبالغاً إذا قلت لك إن هذا الطفل يطرب لثغاء شاة أو نباح كلب في بستان من بساتين السماوة، أكثر مما تطربه موسيقى منتديات الليل في المدن الكونكريتية» (الغرباوي، ٢٠١٠، ج١: ٣٧٦-٣٧٧). فكل هذه المشاعر تنبئ عن وطنية حقيقية تملك وجدانه، وتشربها حسه ولقد تجسد الاحتلال بكل أهواله ومآسيه وفضائعه في قصائد الشاعر وفي هذا ما يدل على انصهاره في التجربة التي عاشها وطنه وشعبه. فمفردات هذا الحقل غطت مساحة واسعة من لغة الشعر بشقيه البيتي، والتفعيلي، وهذا يعطي مؤشراً على مدى الاهتمام بالوطن، وتعلق الذات الشاعرة به، وإحساسها إليه؛ سواء جاء التعبير عنه بمفردة الوطن، أم بالمفردات المعبرة عنه.

#### حقل الألم والحزن

محور الألم والحزن يشكل مساحة كبيرة من الخطاب الشعري لدى السماوي؛ والحزن ظاهرة تجلّت عند كثير من حركة الشعر الحر. «في شعرنا المعاصر استفاضت نغمة الحزن حتى صارت ظاهرة تلفت النظر، بل يمكن أن يقال إن الحزن قد صار محورياً أساسياً في معظم ما يكتب الشعراء المعاصرون من قصائد» (إسماعيل، ٢٠٠٧: ٣٥٢). تعالت رنات الألم على هيئات مختلفة في شعر السماوي، فقد مثل شاعراً يعيش المأساة، وينفعل بأحداثها، ويحاول المشاركة فيها، فجاء شعره مليئاً بألفاظ الحزن والجراح والألم. يظهر الاهتمام بألفاظ الألم التي لا تغادر قصائد الشاعر؛ إذ جاءت منكمشة تعكس صدى روح حزينة ونفس معذبة، وتجربة مليئة بالجراح، ولعلّ المتلقي يقف شاخصاً أمام هذا الألم والحزن يتساءل عن أسبابه؟ مع أن الشاعر يعيش في مدينة ساحلية (أديليد) فاتنة تلتحف الخضرة ولايكاد يغادرها المطر!! هل ذلك لمعاناته الشخصية؟ أم للأحداث التي تمر بها العراق؟ هو يفاجتنا بقوله: «أنا أعيش في مدينة تبدو كما لو أنها مفروشة بالخضرة هي مدينة "أديليد" عاصمة جنوب استراليا. بيتي يقع في حوض سفح جبلي جميل، المحيط على مبعده دقائق من بيتي، والغابة كذلك ووضعي

المالي جيد، فابنتي تعمل مهندسة في إحدى كبريات الشركات الاسترالية، وابني يعمل في متجر شهير ويواصل دراسته في الهندسة المعمارية، وابنتي الأخرى ستدرس الطب قريباً وصغرى بناتي "سارة" سعيدة في مدرستها، ورغم ذلك فإنني أشعر بحزن خراي في وبالتعاسة جراء ما يتعرض له العراقيون من استباحة لدمائهم بالسيارات المفخخة والقتل الإرهابي والعنت الطائفي. معاناتي الشخصية انتهت بسقوط الصنم، فلم أعد أخشى على رقبتني من حبل مشنقة أو زخة رصاص لكن الأسى سيبقى مقيماً في روحي حتى يتعالف العراق من جراحه ويردم مستنقع المحاصصة فيه، ويصبح خبز فقرائه أكبر من الصحن والمائدة» (الغريباوي، ٢٠١٠، ج١: ٢٨١). فهكذا ينتشر الألم والحزن في نفس الشاعر ويكاد يقتله بثقله. تضاعف الحزن لدى الشاعر بسبب ترحيله عن وطنه واحتلال مكانه؛ وقد استغل الشاعر طاقته الإبداعية في إبراز هذا الجانب ليؤدي من خلاله وظيفة إعلامية مقصودة لذاتها. هناك تنوع لألفاظ الألم والحزن والجراح، يبرز أهمها الجدول الآتي:

الجدول ٢. أهم ألفاظ الدالة على الألم والحزن والجراح

الحزن	الذبول	الأسى	القيد	غريبة	السهد	النكبات	زفرات	الذليل	الآهات
المأساة	يذل	الخراب	الداء	الجراح	النأي	جزع	رعب	ذعر	فاجعة
فزع	الردى	سور	الوجع	الركام	أذل	مغترب	المطرود	الشريد	القتيل
الفراق	الإخفاق	الشجن	الغربة	الدم	المسفوح	الرصاص	الغزاة	يعانون	اجتياح
مهزومون	الموتي	سل	الجذام	أربع	التابوت	الطاعون	يبلل	خوف	العقوبات
السجان	السجين	القهر	جرثومة	يخفقان	مذعورة	وطأ	الدفن	افترع	رمم
الثكلي	طاحونة	مستنقع	وهنت	بلا مدد	إذلال	يضيع	الظلام	رماد	قاتل
أسري	إغراق	الجلاد	تجلد	الخائن	عوات	أصحرت	حرمان	الضغينة	مكبلة
المددوغ	الغريق	الجوع	الجياح	البعد	المأجور	نسف	المأذن	عراة	مأواه
الأحزان	عفونت	الحفاة	الجفاف	سفنك	العقم	مصابين	المهراق	عطش	ترحال
بلا	مأدبة	خريف	مشطورة	مقطوعة	سياط	عقيم	سوق	سبية	طول
ساقين	اللثام	العمر	نصفين	النهدين	الذل	النجم	النفاق	مدماة	الأناة
فأس	دامي	عصر	ذبح	قاموس	الخنا	ساح	بيدر	جحافل	دم
الذل	الخطي	غاب	شقيق	العذاب	والعار	إعدامات	المأساة	الظلمات	المهدور
زنبقة	سوط	مسلخ	عصي	إبريق	الفدية	مستوحش	متترح	وحشة	الموت
قتيلة	الهوموم	تحرير	الفجر	السم	للجزاز	الأعناق	الأنهار	الطرقا	المبرمج

هو يتخير لمأساته ألفاظها المناسبة من معجمه الضخم، والألفاظ الذي يستخدمها في أشعاره تدل دلالة قاطعة على أن معجمه مليء بالألفاظ المعبرة عن التمرد والرفض. إن التجربة الشعرية التي انبثقت منها قصائده، تركت في نفس الشاعر دويماً نسمع أصداؤه في كل أبياتها فبدت معها جزءاً لا يتجزأ من بناء قصائده، فجاءت القصائد موحية بمأساة العراق والحزن والخراب والألم، وتلك هي معاناة سماوي الدائمة، قبل الإحتلال - في زمن الطاغية صدام - وبعده. وتقودنا تجربته الشعرية في أحيان كثيرة إلى لب مأساه، وصميم معاناته: (السماوي، ٢٠٠٥: ٥٣-٥٤)

في وطن النخيل/ يحقُّ للمحتلُّ أن يُصادرَ الإرادةَ/ ما دام أن التابع الذليلُ/  
ينوبُ عن كلِّ الملايين التي تبحثُ/ عن خلاصها من عَسَفِ الدخيلِ/ في وطن  
النخيلِ/ يحقُّ للخنزيرِ أن يَحْصُدَ بالرصاصِ/ عشبَ الله في المحرابِ/ يحقُّ للمدفع  
أن يطرقَ كلَّ بابٍ/ ما دام أن العَصْرَ عَصْرُ غابٍ/ ما دام أن (صاحب السعادة)/  
الناطقَ الرسميَّ باسمِ (مسلخِ التحرير)/ والقائمَ بالأعمالِ في (طاحونةِ الإبادة)/  
يُريدُ للقائتِ أن يَسْتَبْدِلَ:/ الخنوعَ بالخشوعِ/ والمزمارَ بالشهادة.

مما يلفت انتباهنا، هنا أن معظم كلمات هذا المقطع لا تتناقض مع واقع العراق الجريح، بل هي مستقاة من المحيط الذي يعيش فيه، وكذلك الكلمات فهي في حسن نظمها وتآلفها قد تشكل صوراً فنية، وخيالات شعرية قادرة على التأثير في نفوس المتلقي، لقد تجلّى في النص العديد من التراكمات اللغوية ذات الإيحاءات النفسية. ويوظف الشاعر عدداً من الألفاظ والتراكيب لتدعم هذه الصورة (الذليل، الدخيل، الخنزير، عصرغاب، مسلخ التحرير، طاحونه الإبادة)، وقد تدرجت معانيه وصوره المختلفة بين التعبير عن الألم والحسرة، والسخرية والتحدي، وقد وفق في إعطاء صورة مؤلّة لواقع العراق، من خلال عبارات - مسلخ التحرير وطاحونه الإبادة - ونستشعر من خلال هذه العبارات، الألم والمرارة التي يعانها الشاعر، ورفضه لحقيقة وجود الاحتلال وعملائه في العراق (السماوي، ٢٠٠٥: ١١٧-١١٨). كذلك قوله:

كلما نَرَفَعُ صوتاً/ باسمِ طفلٍ شاخٍ رُعباً/ وأبٍ قَيِّدَهُ القهرُ/ وباسمِ الأَرْمَلَةِ/  
أَوْقَفُوا سَفْكَ الدَمِ المهدورِ في (الكوفة)/ في (الأنبار) و(البصرة)/ في (الكويت)  
وباقِي المَدِينِ المُشْتَعَلَةِ/ فمتى تعطون للجائع خبزاً/ وأماناً للعصافير التي غادرتِ  
الحقلِ؟/ متى يَرَكِنُ للحكمةِ (ربُّ القُنْبَلَةِ)/ فيجيبُ القتلةَ:/ صَبْرَكُم.../ لم يُكْمَلِ  
التحريرُ عامينِ/ علامَ العَجَلَةُ؟

تضاعف الحزن لدى الشاعر؛ وهو يدرك أنّ الخراب والدمار قد عمّ وطنه ولم يبق له سوى الدمار والجراح. ففي هذا المقطع يصور لنا الواقع المؤلم الذي تعيشه وطنه العراق، وخيم عليها الدمار والمآسي. وهكذا نرى أنّ الكلمات لدى الشاعر، مؤثرة بما تحمل من شحنات شعورية حزينة جريحة (شاخ، رعب، قيد، القهر، سفك الدم، المهذور، المدن المشتعلة، الجائع، القنبلة، الأرملة) لينقل تعبيره عن رؤية هذه الجراح والدمار، وهذه الألفاظ كاشفة عن عمق الجرح والألم الذي يعاني منه الشاعر إزاء ما تمر بالمدن العراقية. وهكذا نجد يستخدم مثل هذه الصيغ ليحقق لمحات نفسية وجمالية تزيد الصورة وتجعلها أكثر تأثيراً ووقفاً في النفس. وقوله: (السماوي، ٢٠٠٥: ١٢٥)

طفلٌ بلا ساقينٍ / وطفلةٌ مشطورةٌ نصّفينٍ / وطاعينٌ دون يدٍ / وامرأةٌ مقطوعةٌ  
النهدينٍ / وكوةٌ في قبّة (الحسين) جميعها: / حصادٌ طلقتين من دبابةٍ / مرّت  
بـ (كربلاء) / تحيةٌ ليوم (عاشوراء)

وفق السماوي في اختيار صورة تبعث على النفور والاشمئزاز في النفس القارئ، وقد جاءت هذه الصورة من خلال عبارات (طفل بلا ساقين، مشطورة نصفين...)، فقد رمز بها الشاعر للاحتلال الأمريكي وجرائمه البشعة التي ترتكب في مدن العراق. وهذه الصورة تسهم في بناء النص وإغناء المعنى. وهو يستخدم القصة الدينية - حادثة كربلاء - ويسقطها على واقعه لتعميق الدلالة على الأسى والألم الإنساني، ويتخذ من هذه الحادثة بالذات نموذجاً لتصوير مأساة الشعب العراقي الجريح، لتوضيح بعض معالم واقع الاضطهاد الذي يرتكب المحتلون. في محور الألم والحزن يعلو صوت الشاعر وصار إنساناً كئيباً لا تفارقه الدموع والآهات: (السماوي، ٢٠٠٥: ١٢٦-١٢٧)

يا زَمَنَ الخوذةِ والدفنِ الجماعيِّ / وقانونِ وحوشِ الغابِ / متى... متى...  
يخترعون طلاقةً / تَمَيَّزُ الطفلَ من الجنديِّ / أو قذيفةً / تُمَيِّزُ الحانةَ والمبغى من  
المحرابِ؟ / وشنطة التلميذِ من حقيبة الإرهابِ؟ / متى... متى... يُغادرُ الأعرابُ /  
بستاننا؟ / فيستعيدُ النخلُ كبرياءه / ويستعيدُ طهره التراب؟

إنّ شاعراً كالسماوي يرتبط ارتباطاً عجيباً بوطنه، فيصير كلّ مظاهر من مظاهر الوطن عالماً بفكره، فهي هو يذوب لوطنه، للأهل والأصحاب، للأطفال، للبيستان، للأشجار، للنخيل، للتراب، ويجسد الشاعر صورة جماعية في حزنه وألمه؛ صورة الشعب العراقي الذي يعاني من الجراح والآلام تحت نير الاحتلال. والملاحظ: قد جاءت الأفعال جميعها بصيغة المضارعة

(يخترعون، تميز، يُغادر، يستعيد)، وبذلك تطفئ الاستمرارية على الحدث في جميع الأسطر؛ وهذه تدل على استمرار الدمار والجراح والقتل وتجده، كما يرى عصام شرتح، في هذا السياق، «هنا؛ تشكل علامات الترقيم فواصل شطرية تعزّز البعد النفسي والتوتر الثوري؛ ممحوراً درجتها التصويرية البصرية؛ على صيغة الاستفهام وعلامات التعجب؛ إذ يضع الشاعر نقطاً متتابعة بعد أداة الاستفهام "متي" واضعاً بعده ثلاث نقط متتابعة؛ ليؤكد أنّ فعل التحقيق بعيد جداً في قوله: «متي يخترعون طلبة تميزُ الطفل من الجندي أو قذيفة تميزُ الحانة والمبغى من المحراب؟» إنّ هذه النقط تؤكد أنّ تحقيق هذه الأمنية بعيد جداً؛ ثم جاء الاستفهام بـ "متي" متتابعاً بالنقط في قوله: «متي... متى يغادرُ الأعرابُ بستاننا فيستعيدُ النخلُ كبرياءه/ ويستعيدُ طهره التراب؟»، ليؤكد كذلك أنّ أمنيته في رحيل الأعراب وجلائهم عن بلده العراق أمنية صعبة التحقيق في ظل الواقع الفوضوي المأساوي في العراق» (شرتح، ٢٠١١: ٢١٨). ففي هذا الكلام دليل على قولنا في استمرارية هذه الجرائم؛ وأنّ هذه الجرائم لا تقطع مادام أنّ المحتل الغاشم قابضاً على العراق، طارداً أهلها، مشرداً أبناءها. ومن ناحية أخرى نلاحظ علامات الاستفهام متلاحقة في المقطع، فترسم انزعاجاً واستغراباً وتجعل القارئ في حيرة، يبحث عن تفسيرات كثيرة تختبئ وراء الكلمات. إذن، إنّ شاعراً تائراً وغازباً فحسب، بل ناقداً سياسياً قادراً على وضع النقاط على الحروف، ورسم خطوط مأساة الشعب.

يتبدى مآسي العراق له في كل شيء، ولن يتوقف الشاعر وهو يدرك أنّ الخراب والدمار قد عمّ وطنه، ونلمح مثل تلك التجارب الشعرية الصادقة التي تتم عن الحزن والكآبة والألم في كل نصّ. وصف معاناة الشعب في ظل الاحتلال أصدق وصف: (السماوي، ٢٠٠٥: ١١١)

النَّبْضُ فِي أَغْصَانِنَا / وَالْمَوْتُ فِي الْجَذُورِ.. / كَأَنَّا النَّاعُورُ: / نَدُورُ حَوْلَ نَفْسِنَا.. /  
وَحَوْلَنَا يَدُورُ / بِسُوطِهِ الْمُحْتَلُّ.. / وَالْقَاتِلُ.. / وَالْمَأْجُورُ / كَأَنَّا التَّوْرُ: / نَقْنَعُ بِالرَّمَادِ مِنْ  
وِجَاقِنَا / وَخَبْرُنَا يَأْكُلُهُ الْمُحْتَلُّ.. / وَالْقَاتِلُ.. / وَالْمَأْجُورُ

يلاحظ أنّ شاعرنا قد أغرق نفسه بلجة الحزن على الوطن والتماهي فيه حتى امتزجت معه. وعمق هذا الحزن وصقل أبعاده حضور شاعر مشهداً واقعياً لتصوير المأساة التي يعيشها الشعب العراقي في ظل الاحتلال، ووصف معاناة الشعب في ظل الاحتلال أصدق وصف. وهنا؛ «يعدّد الشاعر اللحظات المتتابعة والحالات المأساوية التي تنطوي عليها المشاهد اليومية للمواطن العراقي؛ إذ يبين بلقطة مفاجئة هذه الحالة المأساوية؛ بحس تأملي وإضاءة مشهدية للأحداث واللقطات السابقة؛ وهي قوله: «كأنا التور: / نقنع بالرماد من وِجاقنا / وخبْرنا

يأكله المحتلُّ.. والقاتلُ.. والمأجورُ؛ وهكذا؛ يحاول أن يلتزم بنسق تصويري متميز؛ يتميز بالشفافية والعمق وقوة الإدراك التصويري؛ للمثيرات الشعرية وتعزيزها بالصور المبتكرة التي ترصد الحدث بدقة وشفافية فائقة غاية في التطور والتنامي الجمالي» (شريح، ٢٠١١: ب: ١٣١). فهكذا نرى أن الشاعر استوحى قصيدته من معاناة شعبه وجراحات وطنه، فغبر عن عمق آلامه وحجم مأساته، ونحن إزاء وحدة كلية، وحالة من التوحد والتماهي بين الشاعر ووطنه، الشاعر- الوطن، والوطن- الشاعر.

في حقل الألم والحزن، يعلو صوت الشاعر، لكنه أحياناً يتحرج في الكشف عن دائرة العذاب الوطني فيلجأ إلى نوع من التأملات الفلسفية للحياة وشؤونها معه، وهو في غليان أحزانه، فتطلق رؤاه مصورة خبايا نفس حزينة يغلب عليها التشاؤم والقلق: (السماوي، ٢٠٠٥: ٩٧)

أَتَسْتَحِقُّ هَذِهِ الْحَيَاةَ أَنْ يَعْشَىهَا الْإِنْسَانُ / مَسْخًا.. ذَلِيلًا.. خَائِفًا.. مُهَانًا؟ / فِي  
حُفْرَةٍ ضَيْقَةٍ يَأْنِفُهَا الْحَيَوَانَ / مُخْتَبِئًا كَان.. وَكَانَ الْمَوْتُ وَالنَّيْرَانُ / يَحْتَضِبَانِ النَّاسَ  
وَالْبَسْتَانَ / لَيْسَ شَجَاعًا لِيَقْرَأَنَّ أَنَّهُ جَبَانٌ!

ففي هذا النموذج تحول حزنه إلى مأساة إنسانية في أوسع حدوده، وينتشر الحزن في النفس؛ وهذا ما نلمسه جلياً في تعامل الشاعر مع الألفاظ، (مسخ، ذليل، خائف، مهان، حفرة ضيقة، الموت، النيران، الجبان)؛ ويكاد الإنسان ينهار أمام وطأة الأحزان، فيدخل في حالة الضعف والاستسلام؛ وتوظيفه لتلك المفردات توظيف عفوي ينم عما في داخله من حزن أو ألم، دون أن يتكلف في تأويل مظهر وتحميله ما لا يحتمل. فتتحرك الصياغة نحو إبراز لون من العذاب الإنساني، لكن هذا العذاب ليس لذات الألم والحياة، بل إنما لشيء آخر؛ للعزة والكرامة والحرية والوطن! وهذا ما نلمسه في المقطع التالي من هذه القصيدة حيث يقول: (السماوي، ٢٠٠٥: ٩٨)

مَا قِيَمَةُ التَّحْرِيرِ / إِنْ كَانَ الَّذِي هَبَّ إِلَى نَجْدَتِنَا / حَرَرَنَا / وَاعْتَقَلَ الْوَطْنَ؟ / مَا  
شَرَفُ الْيَدِ الَّتِي تَبْعِدُ عَنْ أَعْنَاقِنَا الْقَيْدَ / وَعَنْ عَيُونِنَا الْوَتْنَ / حِينَ يَكُونُ الْوَطْنُ النَّمْنُ؟

إن الوطن بالنسبة لشاعرنا الجريح؛ هو لب الفؤاد، وعمق الأحاسيس، وخلايا الفكر، وكيان الروح، وهو كل الجميل في الوجود؛ فلا غرو حين يصاب الوطن بمكروه، من أجله تندلع الثورة، ويخيم الألم والحزن عليه، ومن هنا كان الجدير بالشاعر أن يشعر باليأس والحزن من الحياة ومن كل شيء؛ لأنه لمس كيف تحول وطنه العزيز إلى معتقل تداس فيه الكرامة، وتصادر فيه الحرية؛ «فإذا كان الذي تصورناه جاء لنجدتنا وتحريرنا، لم يكن مبتغاه مصلحتنا، (فلم تكن الديمقراطية الأمريكية المزعومة) وإنما كان هدفه الوطن ذاته، مصلحته هو، فكنا (كعرب)



كالمستصرخ من الرمضاء بالنار» (عبد الحميد، ٢٠١٠: ٣١٨). فهذا هو سر ألم وحزن الشاعر؛ لأنَّ شاعرنا استوحى قصائده من معاناة شعبه وجراحات وطنه. لم يتعامل مع اللغة بوتيرة واحدة، وإنما اختلف ذلك باختلاف تجاربه الشعرية ومضامينه وحالته النفسية، فعندما يتحدث عن مأساه لا يجد نفسه محصوراً في ألفاظ محددة، بل يتخذ لمأساته ألفاظها المناسبة من معجمه الضخم، فالألم والتعبير عنه يرافقه الحرص على التمسك بالمبادئ والثبات على المواقف، والإصرار على الحب والعشق لهذا الوطن. وقوله: (السماوي، ٢٠٠٥: ١٣٠)

تَعَفَّرَتْ بِذُلِّهَا الْجِبَاهُ / فَطَاعِنٌ يَبْحَثُ عَنْ دَوَائِهِ.. / وَجَائِعٌ يَبْحَثُ عَنْ طَعَامِهِ.. /  
وَخَائِفٌ يَبْحَثُ عَنْ مَأْوَاهُ.. / وَعَاشِقٌ يَبْحَثُ فِي مَسْتَوْدَعَاتِ الْقَتْلِ / عَنْ (لَيْلَاهُ) / فِي  
الْوَطَنِ الْمَحْكُومِ بِالمَأْسَاءِ / مَتَى تَزُولُ الـ (أَهْ) / وَالدَّمُ فِي مَدِينَتِي يَمْتَدُّ مِنْ بَسْتَانِهَا /  
حَتَّى بِيوتِ اللّهِ؟!

إنَّ صورة المعاناة التي رسمها الشاعر في هذا المقطع، من كثافة الألفاظ الموحية بكثرة الهموم، كالذُّلِّ، دواء، جائع، خائف، مأواه، مستودعات القتل، المأساة، أه، الدم، كلها تزداد المقطع حزناً وقياماً. إنَّها تجربة واقعية عاشها وشعر بها، فهو يعرف أين يوظف المفردات في العبارة، وكيف يحكم صياغتها ووصفها، وأين يضعها في شعره. كما نرى، ردد الشاعر اسم الفاعل في أربعة أسطر متتالية وهذا الدال المتكرر (طاعن، جائع، خائف، عاشق) يحمل دلالات متنوعة في نسيج النص؛ فقد أثرى تكراره الإيقاع الداخلي للمقطع بسبب توالي حرف المد (الألف) الذي هو جزء من تركيب اسم الفاعل بما يحمل امتداده، امتداد الألم والحزن في صدر الشاعر ولذلك جاء قوله: «متى تزولُ الـ (أَهْ)»! وقد ارتبط هذا التكرار بالفعل المضارع، ليجسد مشاهد التخريب المستمرة التي لا تنتهي، إضافة إلى صياغة اسم الفاعل الذي تفيد التجدد والاستمرارية. فالتكرار هنا ليس للتأكيد بل لتعميق الشعور الانفعالي الحزين إزاء ما تمر بالعراق الجريح من الظلم والمآسي. ويشبه هذا الامتداد، بالآهات التي تطحن صدره، كما ينسجم توالي المد مع تكرار الآهات في القوافي (الجياه، مأواه، ليلاه، مأساه، أه، اللّهُ) مما تخلف في هذه الفقرة الشعرية جواً مليئاً بالحزن والأسى. هذا كله منح النص الشعري حياة خصبة ثرية.

حقل الجهاد والصمود

إنَّ الشعب العراقي يعاني ليلاً ونهاراً من ويلات ولظى المحتل الأمريكي الذي أذاقه شتى أنواع العذاب، وقتل عشرات الآلاف من الأبرياء وجرح الكثير منهم أثناء المواجهات، رغم ادعائه

الباطل أنه جاء للسلام والديمقراطية. وشاعرنا يتعايش على البعد مع قضايا وطنه، ويعبر عما يعاينه هذا الوطن المنكوب بأبنائه، ويدرك أن الديمقراطية المزعومة ماجاءت لتحرير الوطن بل لاحتلاله، يقول: «السياسة الأميركية سياسة مصالح رأسمالية كولونيالية، إنها وجه الجديد لـ"سبارطة القديمة"، تريد تركع العالم أمام جبروتها العسكرية والرأسمالي، تريد من الشعوب أن تبقى مستهلكة لمنتجاتها وأن يكون "البيت الأسود" في واشنطن المدار الشمسي الذي تدور حوله أفلاك المنظومة الدولية حتى على صعيد الثقافة» (الغرباوي، ٢٠١٠، ج١: ٣٨٤). فالشاعر يحدد طريق الخلاص والتحرير بمواجهة المحتل وعملائه. والمقاومة هي التي توحد صفوف الشعب وتجعله يستعصي على الانكسار أو يتنازل عن حقوقه الشرعية. كما كتب الله الجهاد على المسلمين، فبالجهاد يصون المسلم عرضه، ويحفظ كرامته، ويدافع عن حقه.

ويبدو السماوي في شعره محتجاً ثائراً حزينا بهوم وآلام وطنه المذبوح، فقصاصه ترسم مأساة هذا الشعب الجريح ويبعث فيها روح الاندفاع والنهوض والتأثير في وجدان المتلقي، مواجهاً الواقع الذي يفرضه المحتل الفاشم بشتى حيله الاقتصادية والسياسية والثقافية، فالشاعر يدرك هذا الواقع المر من خلال حسه الشعوري المرهف فتكون أشعاره صرخات مدوية تتم عن الثورة والنضال ورفض الاحتلال منذ السطور الأولى في الديوان حتى آخره. كما يقول في السطور الأولى في الديون: (السماوي، ٢٠٠٥: ٧)

هذه الأرض التي نَعشَقُ / لا تُثَبِّتُ وِردَ الياسمينِ / للغزاة الطامعينِ / والفراتُ  
الفضلُ / لا يُنْجِبُ زيتوناً وتينَ / في ظلال المارقينِ / فاخرجوا من وطني المذبوح شعباً /  
وبساتينَ / وأنهاراً / وطين... .

يعيش الشاعر مع الأحداث ويواكب مسيرتها خطوة بخطوة ولذا امتاز في مجموعاته الشعرية بالهدفية والالتزام الذي واكب مسيرة شعره أكثر من أربعة عقود فتناول المشاكل والمآسي التي تتصل بشعبه. وقد جاء حقل الجهاد والصمود بنسبة عالية في الديوان؛ فمفردات هذا الحقل غطت مساحة واسعة من معجمه الشعري وهذا يعطي مؤشراً على مدى الاهتمام بموضوع الجهاد سواء جاء التعبير عنه بمفردة الجهاد أم بالمفردات المعبرة عن النضال والكفاح. والألفاظ التي انتظمت هذا الحقل اشتملت على مجموعة من المفردات الدالة على الجهاد يمكن توزيعها إلى عدد من العناصر؛ وهذا الجدول للحقل الدلالي لأهم الألفاظ والمفردات ومتعلقاتها الدالة على الجهاد والصمود:

الجدول ٣. أهم الألفاظ والمفردات ومترادفاتها الدالة على الجهاد والصمود

يستلّ	السيوف	الانتقام	ينتفض	عنيد	تأبي	الخنوع	سُلّ
الجهاد	اكنسُ	مواجهة	النار	الموقد	تحرير	جهزُ	أعد
أوجب	اقتحم	الشهيد	الشهادة	بنادق	الثوار	النضال	ينتقم
الدفاع	الفالة	المكوارُ	يطهر	بشارة	ميلاد	ميعاد	الأمان
الشرف	اشهر	حسام	معركة	أعدوا	يُرهب	خيول	ذودوا
يفرّ	تستعاد	الثائر	اتحدوا	نظفوا	كرامة	السيادة	صلاة الذود
حيُّ	الدم	تضامن	النزال	العصمة	حانت	مجرفة	الجدور
المجاهدين	التشبيث	كفناك	العار	انهض	الدخيل	صهوة	العزم
أقم	القصاص	تصرخ	الرشاد	عرض	المكارم	استأصل	صلاح الدين

نجد في هذا الحقل أنّ الدلالات المعجمية قد ارتبطت بالاحتفاء بالجهاد والتشويق إليه كما ارتبطت في سياقاتها بأبعاد شعورية عبرت عن التحريض بالجهاد والاتحاد وإعادة الكرامة والعزة، وقد حفلت بفيض من الألفاظ، والجمل الدالة على روح الصمود والمواجهة. وقد قام الشاعر بواجبه تجاه نشر هذه الثقافة فاحتوت قصائده الحث على الجهاد، لأنّ هذا الاحتلال الغاشم والقتل والافتراس الوحشي، لا بد أن يقابل بمقاومة من جانب الشعب العراقي: (السماوي، ٢٠٠٥: ١٠١-١٠٢)

خَطِيئَةٌ أَنْ يَسْتَمِرَّ الْجَرْحُ / فِي شِكْوَاهُ لِّلسِّكِّينِ.. / خَطِيئَةٌ أَنْ يَأْلَفَ الْقَيْدَ / فَلَا يَبِيدُ  
 مَا فِي وَسْعِهِ لِكَسْرِهِ / مُضْطَّهَدٌ سَجِينِ.. / خَطِيئَةٌ أَنْ يَقَعَّ الْعَاشِقُ بِالْمُنْدِيلِ / وَالشَّرِيدُ  
 بِالرَّصِيفِ / وَالْقَتِيلُ بِالْفِدْيَةِ / وَالشُّعُوبُ بِالْوَعْدِ الَّذِي / يَقَطُّعُهُ الْغُرَاةُ فِي الرَّحِيلِ بَعْدَ  
 حِينٍ / خَطِيئَةٌ أَنْ تَشْتَرِي النَّهْرَ / إِذَا مَا كَانَ عَطَّرَ الرُّوحَ - سَعْرًا. / وَنَدَى الْجَبِينِ!

يعلن الشاعر أن الوطن لا يعيده الشكواه ولا يعيد استمرار الجرح والضياع حقوقاً؛ بل إنه طريق المقاومة والجهاد فقط، وبغير ذلك لن يعود الحق المغضوب لأنّ المحتل لا يقيم وزناً لوعوده. وهذا المقطع متواضع في مستواه الفني ومع ذلك فهو يفصح عن عمق الألم من الواقع المؤلم الذي تعيشه العراق. واللافت في هذا المقطع؛ تكرار كلمة "خطيئة" أربع مرات رغم قدرة الشاعر الفنية والإيقاعية على إسقاط أغلبها، إن ما يحدثه تكرار كلمة "خطيئة" في النص الشعري، إضافة إلى الوظيفة الموسيقية التي أعطاها تكرار الكلمة لإمتاع الأذن من ترديدها أربع مرات لهذه الكلمة؛ هو الإحساس بحالة الشعورية التي يعاني الشاعر إزاء احتلال الوطن

والجرائم التي يرتكبها المحتل في العراق؛ تجتمع في هذه القطعة الشعرية الساخرة المريرة كل عناصر الحزن والدمار لتشكل في النهاية صورة مأساوية للشعب العراقي الذي يعاني تحت ظل الاحتلال الأمريكي.

كذلك يدعو إلى الجهاد والمقاومة وعدم الاستكانة والخضوع في قصيدته «رسالة»: (السموي، ٢٠٠٥: ٨٥-٨٧)

يا عابرَ الآفاقِ / مُرَّ على العراقِ / وباسمِ قلبي قَبِلَ (الفالة) و(المكوار) / والعَبَقُ  
الطالعَ من بنادقِ الثوارِ / في (الكوت) .. في (ميسان) .. / في (الكوفة) .. في  
(الأنبار) / وقلْ لهم: / لا شيءَ غيرَ النارِ / لا شيءَ غيرَ النارِ / يُطَهِّرُ البستانَ من  
رِجْسِ الخنازيرِ / ومن شوكِ الخنا والعارِ / وقلْ لهم: / يا حاملي بشارَةِ السُّبُلِ  
للمنجلِ .. / والميلادِ / للوطنِ المُتَّكِلِ بالأعيادِ / غداً لنا ميعادِ / غداً لنا ميعادِ / مع  
الصباحاتِ التي تُطَرِّزُ البلادِ / بالخيرِ والأمانِ .. / والرشادِ / وقلْ لهم / أُطَبِّقْتُ  
أجفاني على وجوهكم / وأطَبِّقُ الفؤادِ / خيمةَ أضلاعي على بغدادِ

تبدو الدعوة للمقاومة بشكل علني وصريح في هذا المقطع، حين أخذ الشاعر يعلن موقفه دون مهادنة، لأن مهمة الشاعر المستمرة، المقاومة ثم المقاومة، وذلك يبرز حجم الإحساس بفداحة الخسارة وبشاعة الألم في ظل الاحتلال الأمريكي. لقد آمن الشاعر بالجهاد والمقاومة إيماناً جازماً؛ «لا شيءَ غيرَ النارِ / لا شيءَ غيرَ النارِ / يُطَهِّرُ البستانَ من رِجْسِ الخنازيرِ»، ويلجأ الشاعر للتاريخ متخذاً من الماضي وسيلة لإثبات كرامة شعبه من ناحية، وإثبات قدرة أبنائه على مواجهة الاحتلال من ناحية أخرى؛ ويذكر ثورة العراقيين في عام ١٩٢٠م، حيث استخدموا "الفالة" و"المكوار" - وكلتا الأدوات كانتا من بين الأسلحة الشعبية التي استخدمها العراقيون - لطرد الأنكليز. فهو بهذا التراجع إلى التاريخ، مرة أخرى يحثهم على الجهاد والمقاومة، ويقرر أنه لن يشرق الغد لباسم إلا من باب الجهاد والمقاومة. فكلمة "الفالة والمكوار" رمز للثورة أو الحركة الجماهيرية التي ستقضي على الأعداء، وهو مؤمن بأن ثمار الصمود والمواجهة لن تكلف أكثر من الدم، وأنه معتقد اعتقاداً جازماً بأن الحياة لا تتحقق إلا بالتضحية والفداء. ولهذا جاءت عبارة "خيمة أضلاعي على بغداد" لتدل على حبه اللا محدود واللا مشروط لوطنه الجريح، إن هذه العبارة ذات دلالة واضحة، تتفق من بين ثناياها لغة التحدي وتتم عن إرادة قوية، فكل الضغوطات وكل الجبروت الذي يمارسه المحتل لم يجد نفعاً، والشاعر من خلال ذلك يحثهم على المقاومة والصمود ورفض التخاذل والاستسلام. كذلك قوله: (السموي، ٢٠٠٥: ١٠٣-١٠٤)

أخراً ما تَضَمَّنَتْهُ نَشْرَةُ الْأَخْبَارِ/ أَنْ إِمَامَ الْقَصْرِ أَفْتَى/ بِوَجُوبِ السَّيْرِ فِي  
مَعْرَكَةِ الْحِوَارِ/ إِذَنْ؟/ أَعِدُّوا لِعَدُوِّكُمْ - عَدُوَّ اللَّهِ - مَا يُرْهِبُهُ/ مِنْ قُوَّةِ اللِّسَانِ/ وَمَا  
اسْتَطَعْتُمْ مِنْ خِيُولِ الْخُطْبِ الْعِصْمَاءِ/ وَالْبَيَانِ/ ذُودُوا عَنِ التُّرَابِ وَالْمَالِ/ وَعَنْ  
عَرِضِ الْمُحْصَنَاتِ بِالشُّعَارِ/ حَتَّى يَفِرَّ الْقَاتِلُ الْمُحْتَلُّ مِنْ بَسَاتِنَانَا/ وَتُسْتَعَادَ الدَّارُ

إنَّ الشاعرَ قد أحسَّ بالحالة التي يعانها بلده من الدمار والمآسي، وهذا الإحساس بكل هذه المعاني جعل الشاعر يُبدل في توظيف نصه ويحوِّر في ألفاظه ومعانيه ليتناسب والحالة التي يصورها. إذن، يعمق الشاعر النص بإيراده مزيداً من الآية الكريمة ليعطي بعداً دلاليّاً على الواقع السياسي والاجتماعي والوضع الراهن والواقع المرير، غير أنَّ الشاعر حوّل مضمون النص القرآني إلى ضده ليتناسب والمضمون العام لنصه الحاضر؛ إذ، يوحي من خلال هذه الصورة إلى المواقف العربية الخانعة من ذل واستسلام، ليصور الواقع الاجتماعي والسياسي تصويراً عميقاً. تشير الآية الكريمة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال/٦٠). إلى المقاومة والاستعداد لمواجهة العدو، لكن نص الشاعر حمل مفارقة حين جعل هذا المعنى مغايراً، وهي مفارقة تهكمية ساخرة تشف عن نقد للحاكم العربي. «فإذا كانت الآية الكريمة تقول ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ في دعوة لإعداد القوة اللازمة لتخويف العدو وردعه. أفرغ العرب الآيات من معناها وأبقوا على مبنائها، فأصبحت القوة هي قوة اللسان والكلام. وكأنها إشارة إلى مأساة العرب عامة، لا في الحروب فقط، حيث أفرغ العرب الدين من معناه، وأبقوا على مبناه، فأصبح الدين قائماً على العبادات - الطقوس - فقط دون الجوهر ودون الروح. فكأنني بالسماوي يشخص مرض العرب الحديث، وفي ذات الوقت يرشدهم للصواب وللطريق، بالتمسك بأصل الآيات، بالقوة، وبرباط الخيل» (عبد الحميد، ٢٠١٠: ٣٠٩). فهو يتخذ الآية الكريمة نقطة انطلاق لشعوره وفكره، وركيزة فعالة في إثراء مضمون تجربته وتقويمها. وعندما يستدعي الشاعر هذه المعاني، إنما يحاول أن يعيد صياغة الواقع، وتشكيله على أساس الرؤية الراضية لهذا الواقع الراهن من الذل والاستسلام، وهو بذلك يمنح هذا التركيب صورة شعرية نابضة بالحركة والحيوية. لقد استطاع الشعر بهذا التوظيف للآية في هذا المقطع، أن ينقل المعاني بشكل موج، ومثير، دون إسهاب، أو مباشرة؛ وهذه هي قدرة الشاعر على استجلاب المعاني وإعادة خلقها في نفس المتلقي ووعيه؛ حيث ينقل المعنى من البيئة الثابتة والمحايمة، إلى بيئة ومكان آخرين، يمنحه

بعداً جديداً، ودلالة وإيحاء يختلف مع ما كانت عليه سابقاً. ومثل هذا الإصرار على المواجهة والجهاد، نقف على نموذج آخر منه عند الشاعر حيث يقول: (السماوي، ٢٠٠٥: ١٠٧)

كُلُّ الْجَرَادِ الْبَشْرِيِّ الْآنَ فِي بَغْدَادٍ / فَيَا جِياعَ الرَّافِدِينَ اتَّحِدُوا / وَنَظَّفُوا الْحَقْلَ  
مِنَ الْجَرَادِ / كِي لَا يَجُوعَ فِي الْغَدِ الْأَبْنَاءُ وَالْأَحْفَادُ / فَإِنَّ تَأْمِينَ رَغِيْفِ الْخَبْزِ / فَرَعٌ  
مِنَ فُرُوعِ شِرْعَةِ الْجِهَادِ

إنه حمل هموم وطنه واستخدم الشعر بكثافة للدفاع عن وطنه وعن شعبه؛ فيرى أنه يجب التمسك بفريضة الجهاد لدحر المحتلين عن الأرض الرافدين لتبقى العراق عزيزة؛ فالشاعر يعبر عن وطنه بصوره الراهنة بمأساه ومظالمه ويدعو بالصمود والجهاد وطرد المحتل حتى لا يجوع في الغد الأبناء والأحفاد. في ظل الاحتلال نشأت الفوضى والدمار في العراق، فكل الأعداء تسابقوا إلى وليمة العراق؛ لأميالهم التوسعية العدوانية، فهو يرمز بهم "بالجراد" ممثلين في المحتلين، والإرهابيين واللصوص... ويرفض أن يعامل مع أهله بهذه الطريقة المؤذية، في سبيل تحقيق مصالحهم الشخصية. ويدعو أبناء العراق بالجهاد والمقاومة والقوة في وجه الأعداء؛ وإن تكاثرت عليها كل هذه الجراد البشري، فإنها لا بد طردهم من الوطن للغد العراقي الزاهر.

وقد برز هذا التحدي وبث الحماس بوضوح عند الشاعر حينما يقول: (السماوي، ٢٠٠٥: ١٢٨-١٢٩)

الْبِنْدِيقِيَّةُ وَحُدَّهَا الْحَكْمُ الْمُنَزَّهُ / بَيْنَ مَشْكَاةِ الْيَقِينِ / وَبَيْنَ دِيَجُورِ الضَّلَالِ... / الْبِنْدِيقِيَّةُ  
- لَا الْيِرَاعُ - الْنَاطِقُ الرَّسْمِيُّ / بِاسْمِ الدَّارِ تَطَحُّنُهَا خِيُولُ الْإِحْتِلَالِ / بِاسْمِ الْغَدِ الْمَأْمُولِ /  
بِاسْمِ طِفْوَلَةِ سَفْحَتِ / وَبِاسْمِ عُرَاةِ كَهْفِ الْإِعْتِقَالِ / بِاسْمِ الْفِرَاتِ الْمُسْتَبَاحِ / وَبِاسْمِ نَخْلِ  
مُتَّكِلٍ بِالسَّعْفِ وَالْعَرَجُونِ / حَتَّى بَاتَ مَذْبُوحَ الظَّلَالِ / فَاكْسَسُ بِمَجْرَفَةِ الْجِهَادِ الْوَحْلِ /  
وَاسْتَأْصَلَ جَذُورَ (أَبِي رُغَالٍ) / (لَا يَسْلَمُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى) / حَتَّى يُزَالَ  
الْإِحْتِلَالُ / حَانَتْ صَلَاةُ الدَّوْدِ... / حَيَّ عَلَى النَّزَالِ... عَلَى النَّزَالِ / عَلَى النَّزَالِ

نجد أن معجم النص يشع بالتحدي والصمود، ويبدو أن روح المعارضة دفعت الشاعر إلى توظيف هذه الألفاظ. هو يريد من أبناء الوطن مواجهة العدو الغاشم والافتراس الوحشي؛ حتى ينالوا حريتهم من المحتلين. لأنّ الوطن يريخ تحت نير الاحتلال وقد نشر الرعب والجراح والدمار في أنحاء البلاد. طغت ألفاظ الخيبة والانكسار والفجيرة على لغة الشاعر، إلى جانب

١. إنَّ أبا رغال، رجل من سقيف، أرسلوه مع أبرهه يدلّه على بيت الحرام لهدمه فلما وصل مع أبرهه إلى موضع يسمى "المفس"، مات أبو رغال. يتعت كل خائن عربي بأبي رغال، هذا رمز خيانة عربي.

كلمات مزقت قلب الشاعر بحب. وهو وظّف هذه الألفاظ للدلالة على المآسي والأحزان والجراح والدمار مثل: "ديجور، الظلال، تطلحن، سفح، عراة، الاعتقال، المستباح، مُثكل، مذبوح، مجرفة"؛ لينقل تعبيره عن رؤية هذا التحدي والصمود؛ كما وظف البيت المشهور لـ "زهير بن أبي سلمي" «لايسلم الشرف الرفيع من الأذى / حتى يُراقُ على جوانبه الدم» بما يتناسب مع رؤيته الشعرية لضرورة الجهاد للدفاع عن العزة والكرامة. «إنّ الشاعر وظف هذا القول في نصه بما يتواءم ورؤيته الشعرية ومنظوره للجهاد في الدفاع عن الأرض والشرف؛ فهو يريد من أبناء الثورة العراقية أن يستمروا في نضالهم وجهادهم حتى ينالوا حريتهم من الغزاة الأمريكان الطامعين» (شريح، ٢٠١١ ب: ١٤٨). ففي خطابه يذكر أنّ الجهاد؛ كصلاة هو فريضة للمسلمين؛ فيقول: «حانت صلاةُ الدَّوْدِ/ حيَّ على النزال.. على النزال/ على النزال». كأنه يقول "حي على الصلاة". ولعل تكرار هذه العبارة في المقطع، لإثارة المتلقي، وتحفيزه على رفض الواقع المرير؛ لأنّ لهذه الظاهرة أثر في إثراء النص إذ أفادته في توكيد المعنى الذي ألحّ الشاعر على إظهاره فضلاً عن تأثيره على الجانب الإيقاعي.

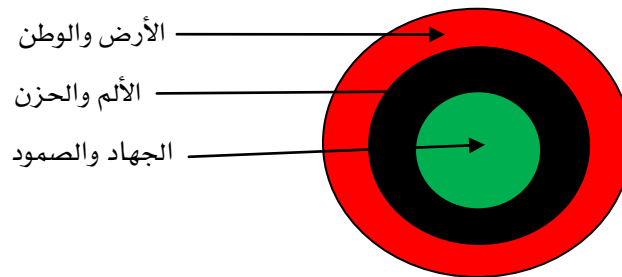
إنّ الجهاد في خطاب الشاعر نور وضياء وحياء وكرامة لمن يعيشون الوطن والحياة الكريمة؛ ونار وجهيم على المحتلين والطفة المجرمين، وهو الذي يدفع المجاهد أن يطهر الوطن من رجس الخنازير، ويضحى في سبيل الدين والوطن، وقد برز هذا الصمود بوضوح عند الشاعر. غير أنه يرفض ويكفر بالجهاد الذي يستهدف الأبرياء، والأطفال، والنساء، لا الطفلة المجرمين: (السماوي، ٢٠٠٥: ١٥٢-١٥٣)

كفرتُ بالجهاد/ إن كان يستهدفُ في رصاصه الجياع/ والأطفال والنساء/ لا  
القاتل المحتل/ والمستعبدين القادة الإماء/ كفرتُ بالقنبلة العمياء/ تَضِلُّ دربها إلى  
مرعى الخنازير التي/ تمرُّ في (المنطقة الخضراء)/ كفرتُ بالنضال/ معروضاً  
بأسواق المخابرات للإيجار/ وبالعمايم التي تُحرّمُ الجهاد/ حين تُستَباحُ الدار/ كفاك  
هذا العار/ كفاك هذا العار/ يا أمة الله انهضي.. كفاك هذا العار/ من قبل أن  
يُطبقَ ليلُ القهر بالدجى/ على بقية النهار/ وقبل أن يُؤمَرَ (القرآن)/ تُهَوِّدَ الأمصارُ

سيطر الواقع الاجتماعي والفكري والسياسي الذي يمر بالعراق، على شعر السماوي سيطرة، بعثت فيه روح الاندفاع نحو الإصلاح والنهوض والتأثير في وجدان المتلقي، مواجهاً الواقع الذي يفرضه الاحتلال وعملائه بشتى حيله منذ احتلال الوطن، فكان الشاعر يدرك هذا الواقع المؤلم من خلال حسه الشعوري المرهف؛ فاحتوت قصائده الحث على الجهاد وعدم

تردد في ذلك، فجاء تحريضه صادقاً لأنه نابع من القلب، لكنه هناك ممارسات وأفكار من قبل الإرهابيين والطاقنيين الذين يقتلون الأبرياء والأطفال والشيوخ والنساء باسم الجهاد والدين، فهو يعلن برائته منهم ويكفر بهذا الجهاد الذي حصد آلاف الأجساد العراقية البريئة وما فرّق بين اليانكي الأمريكي والأبرياء. ويرى عصام شرتح «إن مدلول هذا الملفوظ واضح للعيان بمقصدية الدلالية الصريحة في التعبير عن الغضب والانفعال الداخلي على أولئك الذين يدعون بالإيمان؛ ويدلون بأرائهم الظالمة لمنع الجهاد الحقيقي والإيذان بشتى أنواع القتل والدمار والخراب» (شرتح، ٢٠١١ ب: ٨٩).

إذن؛ إنّه حمل دفة الحب للعراق والثورة على الدمار والقتل والإرهاب وعبر عما بداخله أصدق التعبير. لأن شعره يصدر عن شاعرية طبيعية وطبيعية وفطرية أدبية؛ كما يؤكد الشاعر «الشعر بالنسبة لي منديل.. ودواء.. وعصا.. بهذا المنديل أمسح دموع قلبي.. وبهذا الدواء أقاوم الموت إكراماً للمحبة والحياة.. وبهذا العصا أنشّ عني ذئب الوحشة في براري الغربية» (الغرباوي، ٢٠١٠، ج: ١، ٢٨١-٢٨٢). فصدق الإحساس ودقة التصوير جعلت قصائده لوحة ناطقة لا غموض فيها ولا غرابة. وهكذا عندما نتأمل في المحاور نجد أن كل محور تتصدره ألفاظ معينة من حيث الكثرة والتعميم، يمكن أن نطلق عليها الألفاظ المفتاحية. لقد وظف الشاعر كل هذه الألفاظ الإيحائية لتقريب الحدث وتصويره من أوضح نقطة وأقربها إلى القارئ؛ ومن ناحية أخرى نرصد هذه العبارة "القنبلة العمياء" بدلالاتها على عشوائية القتل، والدمار؛ فالقتل فقط من أجل القتل بغض النظر عن المستهدف، - سواء كان طفلاً أم شيخاً، رجلاً كان أم امرأة -، ليرسم حالة كرهه ورفضه وكفره بالجهاد الذي يستهدف الأبرياء، والأطفال، والنساء، لا الطغاة المجرمين. إذن؛ المتأمل في شعر السماوي في ديوان "نقوش على جذع نخلة" يدرك أن معجمه الشعري دار حول ثلاث دوائر متداخلة هي:



المخطط ٢. أهم الحقول الدلالية في الديوان



ففي هذه الدوائر الثلاث دارت مفردات معجمه الشعري، حيث شكل الوطن بمتعلقاته المتعددة الدائرة الأوسع، ثم الألم والحزن، ثم الجهاد والمقاومة. وقد تقاطع حقل الأرض والوطن مع حقلي الألم والحزن، والجهاد والمقاومة، وشكل معهما علاقة امتزاجية تداخلية؛ حيث يستدعي الحديث عن الأرض والوطن، بيان آلام الشعب العراقي وجراحهم في ظل الاحتلال الأمريكي وديمقراطيته المزعومة، وجرائمه البشعة في العراق؛ وتناول احتلال الوطن وجراحه وآلام الشعب يستدعي الحديث عن الحلّ المتمثل في الجهاد والمقاومة من جانب الشعب العراقي. على هذه الشاكلة تجلّى النصّ عند السماوي؛ فقدم شعره معجماً شعرياً متنوعاً، اختار لغته من الوطن ومعطيائه، ومن الغربة وتجاربها، ومن فلسفته وعالمه النفسي، ومن آلامه وجراحه، فأكملت بذلك جوانب تجربته الشعرية.

واللافت في هذه الحقل بساطة اللغة في أداء الشاعر، وإن كانت قوة الألفاظ وجزالتها تكسب النص قيمة فالأمر عند السماوي مختلف إذ إنّ بساطة اللغة لديها، وصدق الإحساس، ودقة التصوير، جعلت القصائد لوحة ناطقة لا غموض فيها ولا غرابة، ويرى عصام شرّح في هذا السياق: «إنّ المقصدية الدلالية في قصائد السماوي ذات اكتناز دلالي ووضوح مدلولي؛ وبهذا النهج المتمثل في ترسيم المقصدية الدلالية وكشف أبعادها خلقت نصوص السماوي إثارتها الدلالية ووضوح رؤيتها واكتنازها الفني؛ لتستقطب إليها جمهور القراء على اختلاف مستوياتهم، ومشاربهم، واهتماماتهم، وثقافتهم المكتسبة» (شرّح، ٢٠١١: ٩٣). فالشاعر يحمل هموم وطنه وشعبه ويعبر عما بداخله أصدق تعبير وهذا سر شاعريته؛ كما يقول السماوي، المفاتيح السرية لقول الشعر: «إنها حياة الناس، دموع الأراذل، والتكالي، الأمهات اللواتي أنضب القهر والعوز والرعب، حليب أئذائهن، الشباب العاطل عن العمل، اللصوص الجدد الذين أقاموا امبراطورياتهم المالية في غفلة من الزمن. سكاكين المحاصصة التي جعلت من العراق أرخبيل دويلات هشّة، اليانكي الأمريكي، تنانير الخبز التي اتخذت من البعر والروث والسعف وقوداً في وطن يطفو على بحيرة نفض، العاشق الذي يخشى التجول مع حبيبته في حديقة عامة خشية من صاحب لحية كثة أفتى بجواز حزّ رقاب العاشقين، الطفل الذي يختبئ تحت عباءة أمه كلما شاهد سيارة مسرعة، الأديب الذي نطالبه بالإبداع بينما عائلته تطالبه بتوفير الخبز والدواء والحقائب المدرسية لأطفاله، المبدعون الذين صدّقوا الوعود فعادوا إلى العراق ليفاجئوا بكونهم أسهموا إضافة رقم جديد للعاطلين عن العمل!» (الغرباوي، ٢٠١٠، ج١: ٣٩٩). فتلك هي معاناة الشاعر الدائمة؛ فهذه الجراحات والمعاناة لا تحتاج إلى أعمال الفكر، أو انشغال الذهن في بناء

العبارات بقدر ما تحتاج إلى بساطة في التركيب، وسرعة في الأداء. لكن؛ لا بد أن نشير هنا، إلى أنّ البساطة في التراكيب ليست بمعنى السطحية، كما يرى "عصام شرتح" في دراسته في شعر السماوي؛ «أن وضوح المقصدية السماوي دليل تواصل لا دليل مباشرة وسطحية في تناول؛ وإنما نلاحظه - في جل قصائده - نراه يصل إلى أرقى مراتب الشعرية؛ بالإيحاء والصور المبتكرة، والاكتناز الجمالي في خلق الاستعارات الجديدة والقوافي المتلاحمة المتناغمة لطبيعة المشهد، أو الرؤية الشعرية المطروحة» (شرتح، ٢٠١١ أ: ٩٠). وفي ختام حديثنا عن المعجم الشعري، لا بد أن نشير أنه من خلال قرائتنا واستعراضنا لشعر السماوي، قد لاحظنا أن العبارات التي صاغها من هذه الكلمات المركزية، تنم عن أن السماوي يمتلك فناً رفيعاً في تصوير إحاسيسه ومشاعره الجريحة إزاء ما تمر بالعراق الجريح.

### النتائج

بعد عرض النقاط التي تناولها البحث ينبغي أن نعرض أهم النتائج وهي على النحو الآتي:

- تبنت الدراسة تعريفاً للمعجم الشعري، يتمثل في تلك المفردات التي يشكل منها الشاعر قصائده ومقطوعاته، وهذه المفردات تتغلغل بقوة في البناء الشعري، ومن تدقيقنا في المعجم الشعري عند الشاعر وجدنا أن معجمه الشعري يدور حول ثلاث حقول دلالية، وفي هذه الحقول الثلاث دارت مفردات معجمه الشعري.
- إنَّ حقل الأرض والوطن هو القضية الجوهرية التي شكلت البؤرة الدلالية للخطاب الشعري لدى الشاعر في الديوان، وخصص شعره لتصوير العلاقة القائمة بينه وبين الوطن الجريح. وقد حضرت مفردات الوطن بشكل مكثف في النص الشعري وقد شحنت دلالة هذا الحقل بدوال تكاد تستعصى على الحصر.
- ارتبط السماوي بالأرض، وبكل ما له علاقة بالأرض من دوال ومدلولات كالأنهار والنبات والنخيل والعصافير والمدن... حيث يتوحد جسده بالأرض. وعلاقة الشاعر بالنبات والشجر ليست علاقة وصف أو استمتاع، ولا يسلك مسلك شعراء الطبيعة الذين يهتمون بالوصف الحسي، إنما هي علاقة مشاركة وارتباط تحمل أبعاداً وطنية.
- وقد ترددت مفردات الأرض - الوطن - في شعره بصورة أساسية؛ يستطيع الباحث أن يطلق عليها "كلمة السر" أو "المفتاح" التي يتنوع عليه شعر السماوي ككل. وإذا كانت دلالة

الأرض المعجمية ترتبط في الغالب بالموضع الذي عليه الناس فإنه قد وسع من دلالة الأرض؛ حيث أصبحت تحمل في طياتها مدلولات أخرى تعمق معنى الارتباط، والانتماء، والحب، والألم، والتضحية لهذه الأرض. وقارئ نقوش السماوي يدخل مباشرة إلى بلاد الفرات، إلى نخيله، إلى ناسه، وإلى جراحه، والعراق حاضرة بقوة في نقوشه.

إنّ الكلمات لدى الشاعر، مؤثرة بما تحمل من شحنات شعورية حزينة جريحة، لينقل تعبيره عن رؤية هذه الجراح والدمار، لكن السماوي لم يكن رغم المعاناة سوداويّاً أو متشائماً في شعره، فلم تزد المعاناة والألم إلا صلابة وصموداً وتحدياً. إنّ بساطة اللغة لديها، وصدق الإحساس، ودقة التصوير، جعلت القصائد لوحة ناطقة لا غموض فيها ولا غرابة؛ لأنّ السماوي كتب مخلصاً معاناته الفردية ممثلة في الغربة عن الوطن، ومعاناته الجمعية ممثلة في الواقع المؤلم الذي تعيشه وطنه العراق؛ فجاءت هذه القصائد انعكاساً باطنياً لآلامه في ذاته. والمعجم الشعري السماوي، يمتاز بأنّ الدلالة ليست من المفردة أيضاً وإنما تنتزعها من المقطوعة، فتركيب الكلام في العبارة يوجي بدلالات جديدة، وكلها تخدم الغرض المطلوب عنده.

## المصادر والمراجع

## القرآن الكريم

١. إسماعيل، عزالدين (٢٠٠٧م). الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية. بيروت: دار العودة.
٢. بدوي، محمد جاهين (٢٠١٠م). العشق والاعتراب في شعر يحيى السماوي، قليلك لا كثيرهن نموذجاً. دمشق: دار الينابيع.
٣. التميمي، حسام (٢٠٠٢م). الخليل في شعر عزالدين المناصرة. مجلة النجاح للأبحاث، المجلد ١٦.
٤. ————— (٢٠٠١م). تجليات الجفراء في شعر عزالدين المناصرة. مجلة جامعة النجاح للأبحاث، المجلد ١٥.
٥. حسنين، أحمد طاهر (١٩٨٣م). المعجم الشعري عند حافظ إبراهيم. مجلة فصول، المجلد ٣، العدد ٢.
٦. الحلبي، خالد بن سعود (٢٠٠٩م). البناء الفني في شعر بهاء الدين الأميري. دمشق: نادي الأحياء الأدبي.
٧. خفاجي، عبد الجواد (٢٠١٠م). قراءة في قصيدة يحيى السماوي؛ يا صابراً عقدين إلا بضعة. ضمن كتاب تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيى السماوي، لماجد الغرباوي، ج ٢.
٨. راضي جعفر، عبدالكريم (١٩٩٨م). رماد الشعر دراسة في البنية الموضوعية والفنية للشعر الوجداني الحديث في العراق. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
٩. السماوي، يحيى (٢٠٠٥م). نقوش على جذع نخلة. أستراليا: [دون نا].
١٠. ————— (١٩٩٣م). جرح باتساع الوطن. جدة: [دون نا].
١١. شرتح، عصام (٢٠١١ أ). آفاق الشعرية دراسة في شعر يحيى السماوي. دمشق: دار الينابيع.
١٢. ————— (٢٠١١ ب). موحيات الخطاب الشعري في شعر يحيى السماوي. دمشق: دار الينابيع.
١٣. الضامن، حاتم صالح (١٩٨٩م). علم اللغة. الموصل: مطبعة التعليم العالي.
١٤. عبد الحميد يحيى، شوقي (٢٠١٠م). السماوي يحفر التاريخ على جذع الوطن. ضمن كتاب تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيى السماوي، لماجد الغرباوي، ج ١.
١٥. عثمان، اعتدال (١٩٨٦م). جماليات المكان. مجلة الأقاليم، العدد ٢.
١٦. عمر، أحمد مختار (١٩٩٨م). علم الدلالة. ط ٥، القاهرة: عالم الكتب.

١٧. العوني، محسن (٢٠١٠م). الوطن منشوداً وموجوداً في شعر يحيى السماوي. ضمن كتاب تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيى السماوي، لماجد الغرباوي، ج ١.
١٨. الغرباوي، ماجد (٢٠١٠م). تجليات الحنين في تكريم الشاعر يحيى السماوي. دمشق: دار الينايع.
١٩. القرني، فاطمة (٢٠٠٨م). الشعر العراقي في المنفى، السماوي نموذجاً. [دون مك]: مؤسسة اليمامة الصحفية.
٢٠. المسدي، عبدالسلام (١٩٧٧م). الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب. تونس: الدار العربية للكتاب.